والسّلام قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة . ونستطيع وراء ذلك أن نفهم شهادته عليه الصّلاة والسّلام فى حقّ المؤمنين من أمّته المتّقين بأنّهم مؤمنون متّقون خليقون . بنعت القرآن الكريم لهم بأنّهم خير أمّةٍ أخرجت للنّاس . وفى ضوء شهادة الأمّة المحمّديّة على الأمم يوم القيامة بأنّ رسل الله تعالى إليهم قد بلّغوا الرّسالة نستطيع أن نفهم شهادته عليه الصّلاة والسّلام على أمّته بأنها تزكيته عليه الصّلاة والسّلام لتلك الشّهادة وتعديله لها .

وحينما كان القصد التّنبيه إلى منزلة هذه الأمّة الرّفيعة باعتبارها أمّة خاتم الأنبياء والمرسلين وخير أمّة أخرجت للنّاس حتّى إنّها أصبحت أهلاً لأن تشهد على الأمم الأخرى وتقبل شهادتها كان ثمّة تقديمٌ للشّهادة فى القول : « لتكونوا شهداء على النّاس » فالمهمّ فى الأمر الشّهادة . وحينما كان القصد التّنبيه إلى ما خصّ الله سبحانه وتعالى به هذا الرّسول الكريم من كونه هو الشّهيد على أمّته ذات المنزلة العالية الرّفيعة الّتى تبيّنّا كان ثمّة تقديمٌ للجارّ والمجرور العائد على الأمّة وتأخير للشّهادة الّتى قامت أمّته عليه الصّلاة والسّلام من قبل بشىءٍ منها . قال تعالى : ﴿ ويكون الرّسول عليكم شهيدا ﴾ ووراء ذلك نحن نتبيّن التّفنّن فى الأسلوب والتّنويع فى التّعبير ، هذا إلى استقرار لفظة «شهيدا » فاصلةً متمكّنةً من موضعها الّذى ينتهى عنده معنًى تامّ .

وقد جاء عقب أسلوب الإثبات فى القول « وكذلك جعلناكم » نفىٌ من جنسه وذلك فى القول : ﴿ وما جعلنا القبلة الّتى كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه ﴾ .

لقد صرف الله سبحانه وتعالى المصطفى ﷺ عن القبلة الّتى كان عليها وحوّله عن الاتّجاه فى الصّلاة إلى الصّخرة من بيت المقدس وأمره بالتّوجّه إلى المسجد الحرام على نحو ما أشارت الآية الكريمة السّابقة . وإنّ الآية الكريمة هنا تكتفى بموجز القول ووحى الإشارة وذلك فى القول : « وما جعلنا القبلة الّتى كنت عليها » والمعنى : وما جعلنا صرفك عن القبلة الّتى كنت عليها وتتّجه إليها فى صلاتك وهى بيت المقدس وأمرك

بالاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام : « إلاّ لنعلم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه » .

إنّ الجزئيّة الكريمة تنصّ على الحكمة من الأمر بالتحوّل من القبلة المؤقّتة إلى القبلة المؤبّدة ألا وهى علم الله تعالى علم ظهور يتحقّق به الجزاء من ثوابٍ أو عقاب، الثّواب فى حقّ من اتّبع الرّسول والعقاب فى حقّ من انقلب على عقبيه .

وبشأن المؤمنين المتّقين يجىء فى الجزئيّة الكريمة النّصّ على الاتّباع . فالمطلوب من كلّ مؤمنٍ أن يتّبع الرّسول ﷺ اتّباعًا مطلقًا وألاّ يبتدع وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وإنّ صرفه ﷺ عن الاتّجاه إلى بيت المقدس وأمره بالتّوجّه إلى الكعبة فى مكّة المكرّمة ، وهو أوّل نسخٍ فى القرآن الكريم ، يعتبر المقياس الّذى يقاس به مدى اتّباعه ﷺ . والمعروف أنّ المؤمنين قالوا سمعنا وأطعنا بينما ضعاف الإيمان ارتدّوا عن الإسلام أو نافقوا .

وبشأن الفريق الآخر الّذى لم يتّبع تستعير له الجزئيّة الكريمة فى قولها : « ممّن ينقلب على عقبيه » هيئة المرتدّ على عقبيه العائد إلى الوراء سالكًا الطريق الّذى أتى منه لتوّه . إنّ العقب مؤخّر القدم ، وإنّ هذا المرتدّ عن الإسلام إلى الكفر والعياذ بالله قد انقلب على عقبيه معًا ممّا هو دليلٌ على عودته الفوريّة ، وانقلابه السّريع بكلتا قدميه إلى الوراء ، وتصميمه على النّكوص على عقبيه وعلى هجر الصّراط المستقيم والسّير الحثيث على غير هدًى فى طريق الضّلال الّذى آثره وتحوّل إليه سريعًا وركب فيه كلّ صعب حتّى إنّه ليسير إلى الوراء غير عالمٍ ولا آبهٍ بالهوّة السّحيقة الّتى ينجرف إليها وشفا حفرة النّار الّتى يوشك أن يتردّى فيها بسبب كفره بعد الإيمان .

وتقرّر الآية الكريمة فى القول : « وإن كانت لكبيرةً إلاّ على الّذين هدى الله » أنّ التّولية من بيت المقدس إلى المسجد الحرام والتّحويلة فى الصّلاة من الاتّجاه إلى قبة الصّخرة فى القدس الشّريف إلى الكعبة المشرّفة فى مكّة المكرّمة كبيرةٌ حقًّا وشاقّةٌ وصعبة إلاّ على الّذين

---

(١) سورة المائدة ٣ .

هدى الله . ومعنى القول : « وإن كانت لكبيرة » وإنّها كانت لكبيرة . ويلاحظ دخول لام الابتداء على خبر إنّ وفى ذلك من التّوكيد ما لا يخفى ، وبذلك تقرّر الآية الكريمة صعوبة الأمر بتحويل القبلة ولكنّها تُثْبِتُ فى المقابل سهولة ذلك الأمر والامتثال له فى حقّ أولئك الّذين هداهم الله . ونتذكّر بهذه المناسبة الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة السّابقة : « يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » وعليه يكون معنى القول : « إلاّ على الّذين هدى الله » إلاّ على الّذين هداهم الله تعالى إلى الصّراط المستقيم ووفّقهم لاتّباع رسول الله ﷺ اتّباعًا مطلقًا فى كلّ ما أوحى الله تعالى به إليه .

ولمّا كان المؤمنون المتّقون الّذين اتّبعوا الرّسول ﷺ فاتّجهوا فى صلاتهم إلى المسجد الحرام قد صلّوا متّجهين إلى الصّخرة من بيت المقدس اتّباعًا للرّسول ﷺ ، فإنّ ربّ العزّة الّذى أوحى لحبيبه ﷺ بالاتّجاه إلى بيت المقدس أوّلاً وإلى المسجد الحرام آخرًا ، والّذى لا يضيع عمل عاملٍ من ذكرٍ أو أنثى يبيّن فى الجزئيّة الكريمة : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أنّه جلّ وعلا ما كان ليذهب ثواب المصلّين إلى بيت المقدس من الأحياء والأموات معًا ما دامت تلك الصّلاة أريد بها عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وليس أىّ شىءٍ آخر، لأنّ المصلّين متّبعون فى كلٍّ من المرّتين الاثنتين . ـ واحترازًا من دخول صلاة المنافقين الّذين لا يريدون بها وجه الله تعالى فى الجواب على التّساؤل عن مصير الصّلاة إلى المسجد الأقصى تستعمل الجزئيّة لفظة الإيمان بدلاً من الصّلاة فى القول : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » لأنّ الإيمان ينبغى أن يكون صحيحًا والعقيدة ينبغى أن تكون سليمة وما يبنى على الصّحيح والسّليم من صلاة وغير صلاة يكون صحيحًا وسليمًا . وهكذا يتبيّن الحكمة من عدول الجواب عن ذكر الصّلاة إلى ذكر الإيمان الّذى تعتبر الصّلاة شعبةً من شعبه والّذى يعتبر قاعدة الصّلاة الصّحيحة المقبولة إن شاء الله تعالى ومنطلقها .

وتقرّر الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة وذلك فى القول : « إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم » تقرّر رأفة الله تعالى بالنّاس جميعًا ورحمته . إنّ الله سبحانه وتعالى رأف بالنّاس

جميعًا فأمر المصطفى ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين وللنّاس كافّةً بشيرًا ونذيرًا أن يتّجه فى صلاته إلى المسجد الحرام بعد أن كان الاتّجاه إلى بيت المقدس ، لأنّه جلّ وعلا هو العالم بما ينفع عباده ويصلح لهم . وإنّ الله سبحانه وتعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ ليرحم عباده المطيعين أوامره المتّبعين رسوله ﷺ من الأحياء والأموات فلا يضيع ثواب صلاتهم إلى بيت المقدس .

وإنّ كلاً من الرّافة والرّحمة فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة وإن كانتا خاصّتين بهذه المناسبة فإنّهما عامّتان وشاملتان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها إذ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . « فى الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ رأى امرأةً من السّبى قد فرّق بينها وبين ولدها فجعلت كلّما وجدت صبيًّا من السّبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها . فلمّا وجدته ضمّته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه طارحةً ولدها فى النّار وهى تقدر على أن لا تطرحه ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فو الله لله أرحم بعباده من هذه بولدها »(١) .

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
عام ١٤٢١ هـ

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٢ .

الآيــة رقــم (١٤٤)

قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك فى السّماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره . وإنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربّهم ، وما الله بغافلٍ عمّا يعملون ﴾ .

قد : للتّحقيق[١] قد نرى : ومعناه كثرة الرّؤية كقوله :

قد أترك القِرْن مصفرّاً أنامله[٢]

ونرى هنا مضارع بمعنى الماضى . وقد ذكر بعض النّحويّين أنّ ممّا يصرف المضارع إلى الماضى قد فى بعض المواضع ، ومنه : قد يعلم ما أنتم عليه ، ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك . قد يعلم الله المعوّقين منكم[٣] .

والتقلّب : التّحوّل والتّصرّف[٤] تقلّب وجهك : تردّد وجهك وتصرّف نظرك فى جهة السّماء[٥] « عن ابن عبّاس : كان أوّل ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لمّا هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحبّ قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السّماء فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك فى السّماء .....﴾ »[٦] عن ابن عبّاس قال : كان النّبىّ ﷺ إذا سلّم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السّماء فأنزل الله : ﴿ فلنولّينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[٧] .

---

(١) الجلالين
(٢) الكشاف ١/٢٤٤
(٣) البحر المحيط ١/٤٢٧
(٤) تفسير الطّبرى ٢/١٣
(٥) الكشاف ١/٢٤٤
(٦) تفسير ابن كثير ١/١٩٢ وتفسير الطّبرى ٢/١٣
(٧) تفسير ابن كثير ١/١٩٢

فلنولّينّك : فلنصرفنّك[١] ولنحوّلنّك[٢] وجاء هذا الوعد على إضمار قَسَمٍ مبالغةً فى وقوعه لأنّ القسم الأول يؤكّد مضمون الجملة المقسم عليها[٣] .

ترضاها : تهواها وتحبّها[٤] وتميل إليها لأغراضك الصّحيحة الّتى أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته[٥] .

فولّ وجهك : اصرف وجهك وحوّله[٦] واستقبل بوجهك فى الصّلاة نحو الكعبة . وبهذا الأمر نسخ التّوجّه إلى بيت المقدس[٧] .

شطر : أى ناحية[٨] ونحو وقصد وتلقاء[٩] وجهة[١٠] وشطر المسجد نصب على الظّرف ، أى اجعل تولية الوجه تلقاء المسجد أى فى جهته وسمته ، لأنّ استقبال عين القبلة فيه حرجٌ عظيم على البعيد[١١] .

المسجد الحرام : يعنى الكعبة ولا خلاف فى هذا[١٢] وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليلٌ على أنّ الواجب مراعاة الجهة دون العين[١٣] عن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال : البيت قبلةٌ لأهل المسجد . والمسجد قبلةٌ لأهل الحرم ، والحرم قبلةٌ لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمّتى[١٤] ولا خلاف بين العلماء أنّ الكعبة قبلةٌ فى كلّ أفق ، وأجمعوا على أنّ من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها . وأنّه إن ترك استقبالها وهو معاينٌ لها وعالمٌ بجهتها فلا صلاة له وعليه إعادةُ كلّ ما صلّى . ذكره أبو عمر . وأجمعوا على أنّ كلّ من غاب عنها أن

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٣
(٢) الجلالين .
(٣) البحر المحيط ١/٤٢٨
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٣
(٥) الكشّاف ١/٢٤٤
(٦) تفسير الطّبرىّ ٢/١٣
(٧) البحر المحيط ١/٤٢٨
(٨) تفسير القرطبى ص ٥٤١ والبحر المحيط ١/٤٢٩
(٩) تفسير الطّبرىّ ٢/١٣
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٢ والبحر المحيط ١/٤٢٩
(١١) الكشّاف ١/٢٤٤
(١٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٤١
(١٣) الكشّاف ١/٢٤٤ والبحر المحيط ١/٤٢٩
(١٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٤١ وتفسير ابن كثير ١/١٩٣

يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها . فإن خفيت عليه فعليه أن يستدلّ على ذلك بكلّ ما يمكنه من النّجوم والرّياح والجبال وغير ذلك ممّا يمكن أن يستدلّ به على ناحيتها . ومن جلس فى المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً فإنّه يُرْوَى أنّ النّظر إلى الكعبة عبادة ، قاله عطاء ومجاهد[١] والمشهور أنّ أوّل صلاة صلاّها النّبىّ ﷺ إلى الكعبة صلاة العصر ، ولهذا تأخّر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر[٢] .

الحرام : الممتنع[٣] .

حيث : ظرف مكان[٤] .

فولّوا وجوهكم شطره : هذا أمرٌ لأمة محمّدٍ رسول الله ﷺ . لمّا تقدّم أمره بذلك أراد أن يبيّن أنّ حكمه وحكم أمّته فى ذلك واحدٌ مع مزيد عموم فى الأماكن لئلاّ يتوهّم أنّ هذه القبلة مختصّةٌ بأهل المدينة[٥] والهاء الّتى فى شطره عائدةٌ إلى المسجد الحرام[٦] .

وإنّ الّذين أوتوا الكتاب : أحبار اليهود وعلماء النّصارى . وقد قيل : إنّما عَنَى بذلك اليهود خاصة[٧]

ليعلمون أنّه : أى التّوجّه إلى المسجد الحرام[٨] .

ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم : يعنى هؤلاء الأحبار والعلماء من أهل الكتاب يعلمون أنّ التّوجّه نحو المسجد الحقّ الّذى فرضه الله عزّ وجلّ على إبراهيم وذرّيّته وسائر عباده بعده[٩] .

حينما كان المصطفى ﷺ بمكّة كان إذا صلّى متّجهاً إلى بيت المقدس كما أوحى الله تعالى إليه ، يجعل الكعبة المشرفة أمامه حبّاً فيها وطمعاً أن تكون هى مستقبلاً قبلته بإيحاءٍ من الله تعالى لأنها قبلة إبراهيم عليه السّلام ولأنّ ذلك أدعى إلى إسلام العرب . فلمّا

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٢
(٢) تفسير ابن كثير ١/١٩٣
(٣) البحر المحيط ٢/٤١٨
(٤) البحر المحيط ١/٤٢٩
(٥) البحر المحيط ١/٤٢٩
(٦) تفسير الطّبرىّ ٢/١٥
(٧) تفسير الطّبرىّ ٢/١٥ وتفسير القرطبىّ ص ٥٤٣ وتفسير ابن كثير ١/١٩٣ والبحر المحيط ١/٤٣٠
(٨) البحر المحيط ١/٤٣٠ والجلالين
(٩) تفسير الطبرىّ ٢/١٥

هاجر ﷺ إلى المدينة كان المسجد الحرام باعتباره جنوب المدينة المنوّرة خلفه ﷺ إذا صلّى متّجها إلى بيت المقدس ، فلا يتسنّى له فى المدينة ما تسنّى له فى مكّة . فإذا أنهى عليه الصّلاة والسلام صلاته شخص ببصره إلى السّماء وقلبّ طرفه فى أقطارها ورفع رأسه تجاهها وحوّل وجهه فى أنحائها راجياً الله سبحانه وتعالى الّذى يعلم السّرّ وأخفى والّذى أحاط علماً بما تميل إليه نفس المصطفى ﷺ ويهواه قلبه ويرضاه شخصه عليه الصّلاة والسّلام من قصدٍ نبيلٍ وغايةٍ سامية بأن ينزل إليه من ربّ السّماوات العلى ربّ المشارق والمغرب وحىٌ بأن يتّجه فى صلاته إلى المسجد الحرام بعد أن أوحى إليه جلّ وعلا أن يتّجه فى صلاته إلى بيت المقدس . وانظر إلى حرف التّحقيق قد من القول ﴿ قد نرى ﴾ الذى يفهم منه حفاوة السّماء بغاية المصطفى ﷺ الشّريفة وقصده النّبيل . وإذا كان فريقٌ من العلماء قد ذهب إلى أنّ حرف التّحقيق فى مثل هذه الحال يصرف الزّمن المضارع « نرى » إلى الزّمن الماضى فكأنّ المعنى : قد رأينا ، فإنّا وراء ذلك ، وتمشّياً مع كون الزّمن لا علاقة له مطلقاً بعلم الله تعالى المحيط ، نتبيّن فى صيغة الزّمن المضارع « نرى » تعميقاً للتّحقيق الّذى يفيده قد ، وتأكيداً لاحتفاء السّماء بغايته ﷺ الشّريفة الّتى عبّر عنها وجهه الشريف ﷺ بتقلّبه فى السّماء . إنّ الوجه أشرف أعضاء جسد الإنسان ، وها هو ذا وجه أشرف خلق الله تعالى يتقلّب . وأين يتقلّب هذا الوجه الشّريف ويتصرّف ؟ فى السّماء مصدر الوحى ومنبع كلّ خير . ولعلّ هذا الاحتفاء يتجلّى على حقيقته حينما نستأنس ببعض آى الذّكر الحكيم من سورة يوسف مثلاً الّتى جاء فيها كلٌّ من صيغة الزّمن الماضى « رأى » وصيغة الزّمن المضارع « أرى » وحينما تلمح الفرق الدّقيق بين التّعبيرين ونتبيّن الحكمة من تنويع التّعبيرين مع أنّ ميدان الحديث واحد وهو الرّؤى . جاءت صيغة رأى مرّتين اثنتين على لسان يوسف عليه السّلام فى قوله تعالى[1] : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّى رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ فيوسف عليه السّلام الغلام الصّغير يقصّ على أبيه يعقوب عليه السّلام فى براءة الرّؤيا الّتى رآها

(١) سورة يوسف ٤

مستعملاً الزّمن الماضى « رأيت » الّذى يوحى بأنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يعلّق على هذه الرّؤيا أىّ مسائل ولا يرتّب عليها أىّ نتائج إنّما يقصّ على أبيه الحبيب الرّؤيا الّتى رآها حبّاً فى إطلاع والده عليها وكفى . فلنتحوّل إلى صيغة الزّمن المضارع الّتى تجئ فى مناسبات مماثلةٍ وهى قصّ الرّؤى ولكن على ألسنة شخصيّاتٍ كبيرةٍ فى السّنّ واعية ، ترتّب على الرّؤى نتائج مصيريّة وأموراً غايةً فى الأهمّيّة . جاء على لسان الفتيين قوله تعالى[1] : ﴿ ودخل معه السّجن فتيان ، قال أحدهما إنّى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنّى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطّير منه نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين ﴾ وجاء على لسان ملك مصر قوله تعالى[2] : ﴿ وقال الملك إنّى أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَر يابسات ، يا أيّها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرّؤيا تعبرون ﴾ .

إنّا نتبيّن من حرف التحقيق « قد » ومن صيغة الزّمن المضارع « نرى » احتفاءً من السّماء كبيراً بتقليب المصطفى ﷺ وجهه الشّريف فى السّماء راجياً فضل الله تعالى المتمثّل فى وحيه بأن يتّجه المصطفى ﷺ فى صلاته إلى المسجد الحرام . وتجئ البشارة الأولى الممهّدة للبشارة الكبرى الثّانية الموطّئة لها فى صيغة القسم « فلنولّينّك » المعمّقة للقول : ﴿ قد نرى ﴾ وقد جاء هذا الوعد على إضمار قسمٍ مبالغةً فى وقوعه لأنّ القسم يؤكّد مضمون الجملة المقسم عليها[3] إنّ ربّ العزّة يبيّن للمصطفى ﷺ فى وعده جلّ وعلا بأنّه سيولّى المصطفى ﷺ فى الصّلاة ويصرفه ويوجّهه إلى قبلةٍ يرضاها النّبىّ ﷺ ، يحبّها ويهواها ﴿ فلنولّينّك قبلةً ترضاها ﴾

والحقيقة أنّا نتبيّن فى القول : « ترضاها » معانى أعمق من معانى الحبّ والهوى وأبعد مرمى . إنّنا بصدد أمرٍ يتجاوز معه المصطفى ﷺ الّذى لا ينطق عن الهوى والّذى هو بحقّ أخشى النّاس لله وأعبدهم له جلّ وعلا ، يتجاوز معه مرحلة الحبّ والهوى إلى مرحلة الرّضا . فثمّة تآلفٌ وتناغمٌ بين الحبّ والهوى والرّضا ، وكانت الثّمرة أن بارك

---

(١) سورة يوسف ٣٦ (٢) سورة يوسف ٤٣

(٣) البحر المحيط ٤٢٨/١

السّماء تلك الرّغبة الصّحيحة وحقّقتها .

وقد جاء إثر التّمهيد بالبشارة البشارة العظمى ، وجاء عقب التّهنئة له ﷺ بتحقيق أمنيّته التّحقيق الفعليّ وذلك فى القول فور التّهيئة : ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ إنّ ربّ العزّة يأمر المصطفى ﷺ أن يتحوّل فى صلاته من الاتّجاه إلى بيت المقدس الّذى يمثّل القبلة المرحليّة إلى الاتّجاه فى الصّلاة شطر المسجد الحرام الّذى يمثل القبلة الأبديّة . ومع أنّ المقصود بالمسجد الحرام هنا بإجماع العلماء الكعبة المشرّفة ، فإنّا نتبيّن فى تخصيص الآية الكريمة المسجد الحرام بالذكر مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىء . إنّ ربّ العزّة يخفّف على عباده البعيدين عن الكعبة المشرّفة والّذين لا يستطيعون أن يروها فى الصّلاة ويرفع عنهم الحرج فيجىء ذكر المسجد الحرام مراعاةً للبعيدين عن الكعبة المشرّفة ومنهم المصطفى ﷺ الّذى كان آنذاك بالمدينة ، ولا يجىء ذكر الكعبة الّتى يتعيّن على من يراها أن يستقبلها فى صلاته . ويعتبر ذكر المسجد الحرام مظهراً من مظاهر رأفة الله تعالى ورحمته بالنّاس اللّتين جاءت الإشارة إليهما فى الآية الكريمة السّابقة وذلك فى القول : ﴿ إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم ﴾ .

ويجىء إثر التّهيئة للبشارة والبشارة اللّتين يفهم منهما احتفاء السّماء الكبير بالمصطفى ﷺ يجىء الأمر للأمّة الإسلامية بأن تتّجه فى صلاتها حيثما كانت شطر المسجد الحرام ، وذلك فى القول : ﴿ وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ ويلاحظ أنّه لا يجئ فى الآية الكريمة مثل هذا القول : وولّوا وجوهكم شطره ، على غرار خطابه ﷺ ، لأنّ فيما جاء فى الآية الكريمة زيادة اتّساعٍ فى المكان إذ يشمل كلّ مكانٍ تدرك فيه المسلم الصّلاة ، وفى مقدّمة الأمكنة المدينة المنوّرة وفى مقدّمة المخاطبين سكّان المدينة المنوّرة من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ولمّا كان يسكن المدينة المنوّرة آنذاك فريق من أهل الكتاب ، من بنى إسرائيل على جهة الخصوص الّذين كان اتّجاه المصطفى ﷺ والمسلمين فى الصّلاة إلى بيت المقدس قبلتهم أساساً ، ولمّا كان التّولى فى الصّلاة عن بيت المقدس إلى المسجد الحرام مزعجاً لأهل الكتاب عموماً بنى إسرائيل خصوصاً ، فقد كان فى الآية الكريمة تقريرٌ لموقف أهل

الكتاب من تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ، وتبيينٌ لمناوأتهم المستمرّة لكلّ حقّ يجيء به المصطفى ﷺ من ربّه ، بما فى ذلك تحويل القبلة . وإنّ تقرير الآية الكريمة لموقف أهل الكتاب مستقبلاً ، وتبيينها رفضهم لهذا التّحويل يعتبر مظهراً من مظاهر إنباء القرآن الكريم بالغيب . وبما أنّ مثل هذا القول : ﴿ سيقول السّفهاء من النّاس ما ولاّهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها ﴾ يتضمّن إنباءً بالغيب صريحاً ، فإنّ حديث الآية الكريمة هنا عن هؤلاء الخفاف الحلوم وذلك فى القول : ﴿ وإن الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربّهم ، وما الله بغافل عمّا يعملون ﴾ يتجاوز الإنباء بالغيب المفهوم ضمناً إلى تقرير علم القوم بأنّ تحويل القبلة واتّجاه المصطفى ﷺ والمسلمين فى الصّلاة إلى المسجد الحرام ، ليعلم أهل الكتاب علم اليقين أنّه الحقّ من ربّهم جلّ وعلا ومن ثمّ تهدّدهم الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة . إنّ ربّ العزّة الّذى يعلم ما توسوس به نفس كلّ مخلوق يبيّن فى كتابه العزيز أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ تحويل القبلة هو الحقّ من ربّهم جلّ وعلا . أمّا أنّه حقّ فلأنّهم يعلمون علم اليقين أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو رسول ربّ العالمين النبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل وعليه يكون كلّ ما جاء به هذا الرّسول الكريم إنّما هو الحق الموحى إليه به من ربّ العالمين .

وانظر إلى القول : ﴿ من ربهم ﴾ وتقرير الجزئيّة الكريمة أنّ القوم يعلمون أنّ تحويل القبلة هو الحقّ الموحى به إلى النّبىّ ﷺ من ربّهم جلّ وعلا ، مربّيهم بنعمه وآلائه . والمعروف أنّ لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم إنّما يستعمل فى مواقف الخصوص وفى مقام التّنبيه إلى نعم الله تعالى ووجوب الشّكر كفاء تربيته جلّ وعلا عباده بنعمه وآلائه . وإنّ إنباء القرآن الكريم بالغيب فى حقّ أهل الكتاب لم يزده مرور السّنين وتعاقب القرون إلاّ ثباتاً ورسوخاً .

وحينما أرادت الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية تهديد القوم المعرضين عن الحقّ وتقرير علم الله تعالى المحيط بكلّ شىء ومن ذلك فعل أهل الكتاب الّذى أكد قولهم المناوئ لدعوة الحقّ وعليه فلا تعبق المناسبة بشذا السّعادة والسّرور البشر والحبور ، وكان الموقف أبعد من الخصوص الّذى يتمشّى معه لفظ الرّب ، وأقربَ إلى العموم بقصد تهديد كلّ مخالف

للحقّ عامل ضدّه عن عمدٍ وسبق إصرار ، كان لكلّ ذلك فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة استعمالٌ للفظ الجلالة « الله » وذلك فى القول : ﴿ وما الله بغافلٍ عمّا يعملون ﴾ إنّ أهل الكتاب إذا كانوا المعنيّين بهذه الجزئيّة فى المقام الأوّل ، فإنّها تعنى وراء ذلك كلّ من خالف الحقّ عناداً واتّبع هواه وخادّ الله ورسوله .

الآيــة رقــم (١٤٥)

قال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آيةٍ ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابعٍ قبلتهم وما بَعْضُهُمْ بتابعٍ قبلة بعض . ولئن اتّبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين ﴾ .

ولئن : اللّام فى : ولئن هى الّتى تؤذن بقسم محذوفٍ متقدّم . فقد اجتمع القسم المتقدّم المحذوف والشّرط متأخّرٌ عنه فالجواب للقسم وهو قوله : ما تبعوا ولذلك لم تدخله الفاء . وجواب الشّرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه[١] .

بكل آية : بكلّ برهانٍ وحجّة[٢] .

وما أنت بتابعٍ قبلتهم : لفظ خبر ويتضمّن الأمر ، أى فلا تركن إلى شيءٍ من ذلك[٣] وقبلة اليهود بيت المقدس . وقبلة النّصارى مطلع الشّمس[٤] بمعنى أنّ اليهود إذا كانت تستقبل بيت المقدس بصلاتها فإنّ النّصارى تستقبل المشرق[٥] وهذه الجملة أبلغ فى النّفى من حيث كانت اسميّةً تكرّر فيها الاسم مرّتين ، ومن حيث أكّد النّفى بالباء فى قوله تعالى : بتابع[٦] .

وما بعضهم بتابع قبلة بعض : إشارةٌ إلى أنّ اليهود لا تتنصّر وإلى أنّ النّصارى لا تتهوّد ، وذلك لما بينهما من إفراط العداوة والتّباغض . وقد رأينا اليهود والنّصارى كثيراً

---

(١) البحر المحيط ١/٤٣٠ (٢) تفسير الطّبرى ٢/١٥
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٤٤ (٤) البحر المحيط ١/٤٣٢
(٥) تفسير الطّبرى ٢/١٥ (٦) البحر المحيط ١/٤٣٢

ما يدخلون فى ملّة الإسلام ولم نشاهد يهودياً تنصّر ولا نصرانياً تهوّد[١].

ولئن اتبعت أهواءهم .... : اللام أيضاً مؤذنةٌ بقسم محذوف ولذلك جاء الجواب بقوله : إنّك . وتعليق وقوع الشّىء على شرطٍ لا يقتضى إمكان ذلك الشّرط[٢]. إنّ الخطاب للنّبىّ ﷺ والمراد أمّته ممّن يجوز أن يتّبع هواه فيضير باتّباعه ظالماً ، وليس يجوز أن يفعل النّبىّ ﷺ ما يكون به ظالماً ، فهو محمولٌ على إرادة أمّته لعصمة النّبىّ ﷺ وقطعنا أنّ ذلك لا يكون منه . وخوطب النّبىّ ﷺ تعظيماً للأمر ولأنّه المنزل عليه[٣] وأكثر استعمال الهوى فيما لا خير فيه ، وقد يستعمل فى الخير ، وأصله الميل والمحبّة . وجُمعَ وإن كان أصله المصدر لاختلاف أغراضهم ومتعلّقاتهم وتباينها[٤].

من بعدما جاءك من العلم : من بعدما وصل إليك من العلم بإعلامى إيّاك أنّهم مقيمون على باطلٍ وعلى عنادٍ منهم للحقّ ومعرفةٍ منهم أنّ القبلة الّتى وجّهتك إليها هى القبلة الّتى فرضت على أبيك إبراهيم عليه السّلام وسائر ولده من بعده من الرّسل التّوجّه نحوها[٥].

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّ تحويل القبلة هو الحقّ من ربّهم جلّ وعلا . وهذه الآية الكريمة تبيّن أنّ المصطفى ﷺ ، لو فُرِض أنّه أتى الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آيةً ما تبعوا قبلته ﷺ إلى المسجد الحرام بعد ترك قبلتهم إلى بيت المقدس فى حقّ اليهود وإلى مطلع الشّمس فى حقّ النّصارى . وعليه يكون حديث الآية الكريمة السّابقة بمثابة التّمهيد والتّهيئة للمصطفى ﷺ لتلقّى هذا الإنباء الجديد بالغيب الّذى يعتبر بمثابة التّسلية للنّبىّ ﷺ والتّسرية عنه .

واللام من القول : « ولئن » موطّئة لقسمٍ محذوف ، وإن أداة شرط ، فليس الكلام بسيطاً ولا عاديّاً إنّما هو المؤكّد بالقسم وبأسلوب الشّرط . ثمّ إنّنا بصدد القول : « أتيت » والمعروف أنّ جملة أتى فى القرآن الكريم لا تستعمل إلاّ حيثما يراد التّنبيه

---

(١) البحر المحيط ١/٤٣٢
(٢) البحر المحيط ١/٤٣٢
(٣) تفسير القرطبى ص ٥٤٤
(٤) البحر المحيط ١/٤٣٣
(٥) تفسير الطبرى ٢/١٦

إلى البعد المكانىّ أو الزمانىّ أو المعنوىّ . والمعنى هنا أن المصطفى ﷺ لو بذل كلّ ما أوتى من طاقة من أجل الوصول إلى كلّ برهانٍ وحجّة تضاف إلى آية القرآن الكريم الكبرى وحجّته العظمى ، وحصل على كلّ برهانٍ وحجّة وأتى به الّذين أوتوا الكتاب أدلّةً أكيدةً إضافيّةً إلى حجّة القرآن الكريم وإلى علمهم اليَقينىّ بإنّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام هو الحقّ من ربّهم جلّ وعلا ، فإنّ الّذين أوتوا الكتاب السّماوىّ الذى يجدون فيه نعت المصطفى ﷺ النّبىّ الأمّىّ لن يتّبعوا قبلته ﷺ ولن يتركوا قبلتهم إلى بيت المقدس أو إلى مطلع الشّمس ، لأنّ مخالفة القوم للحقّ ليس وليد جهلٍ يذهب به العلم ، وليس بسبب نقص دليل أو غياب حجّة كى تتحوّل المخالفة وفاقاً لوجود الدّليل ومجىء الحجّة ، إنّما مخالفة القوم بسبب العناد والمكابرة .

وبعد تقرير الآية الكريمة عدم اتّباع الذين أوتوا الكتاب قبلته ﷺ تقرّر عدم اتّباعه ﷺ قبلة كلٍّ من اليهود والنّصارى وذلك فى عبارة فريدة : ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ إنّنا بصدد جملةٍ اسميّة خبريّة تفيد الأمر بعدم اتّباع قبلة القوم ، بل تفيد استمرار الأمر بعدم اتّباع قبلة القوم . وإذا كان الحديث متّجها إلى المعصوم ﷺ فإنّ المقصود فى الحقيقة أمّته ﷺ .

ورغبةً فى تقرير استمراء القوم المخالفة واستمرار العناد تبيّن الجزئيّة الكريمة التّالية فى القول : ﴿ وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض ﴾ أنّ اليهود والنّصارى المتفقين ضدّك أيها الرّسول الكريم المصرّين على عدم اتّباع قبلتك الّتى أوحى الله تعالى إليك بالتّوجّه إليها مختلفون فيما بينهم وليسوا متّفقين . إنّ اليهود متمسّكون بالاتّجاه فى الصّلاة إلى بيت المقدس . وإنّ النّصارى متمسّكون بالاتّجاه فى الصّلاة إلى المشرق . فليس قصد القوم اتّباع الحقّ والتّمسّك به إنّما القصد العناد واتّباع الهوى وإلى ذلك أشارت الجزئيّة الكريمة التّالية والأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظّالمين ﴾ .

إنّ هذه الجزئيّة الكريمة فى صياغتها على غرار صياغة صدر الآية الكريمة ، فنحن بصدد اللّام الموطّئة للقسم وبصدد اجتماع القسم والشّرط والاكتفاء بجواب القسم المتقدّم

المحذوف عن جواب الشّرط فى كلتا الجملتين . إنّ جواب القسم فى الأولى ﴿ ما تبعوا قبلتك ﴾ وإنّ جواب القسم فى الثّانية : ﴿ إنّك اذاً لمن الظّالمين ﴾ .

ومع أنّ الخطاب فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة يتّجه إلى المعصوم ﷺ فإنّ المقصود فى المقام الأوّل أفراد أمّته ﷺ الّذين يصحّ أن يصدر من بعضهم اتّباع أهواء أهل الكتاب وترك العلم القاطع والحقّ النّاصع الّذى تجلّى فيما أوحى الله تعالى به إلى حبيبه المصطفى ﷺ . والمعنى : ولئن اتّبعت أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم أهواء أهل الكتاب من اليهود والنّصارى فاتّجهت فى صلاتك إلى قبلة اليهود أو النّصارى وهجرت القبلة الّتى أمرك الله تعالى بالتّوجّه إليها فى الصّلاة ، قبلة إبراهيم عليه السّلام والأنبياء من بعده ، إنّك إن فعلت ذلك من بعدما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظّالمين الّذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها والّذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم .

وانظر إلى جملة جاء فى القول : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ والّتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب المكانى أو الزّمانىّ أو المعنوىّ ، وانظر إلى لفظة العلم الّتى تستعمل دليلاً على ما أوحى الله سبحانه وتعالى به إلى النّبىّ ﷺ فى شأن القبلة ، وذلك فى مقابل أهواء أهل الكتاب الّتى يتمسّكون بها حينما لا يتّجهون فى صلاتهم إلى المسجد الحرام ، ولا يعتنقون دين الإسلام النّاسخ لسائر الأديان ، وحينما يتّجهون فى صلاتهم إلى قبلتهم الّتى يعلمون علم اليقين أنّ الإسلام قد أمر بالتّوجّه إلى المسجد الحرام والكعبة الشّريفة ناسخاً كلّ قبلةٍ أخرى . ونستطيع أن نفهم من ذكر لفظة العلم الإشادة بالعلم وبالعلماء ، كما أنّنا نستطيع أن نفهم أنّ الحجّة تقوم على العالم بأكثر من قيامها على الجاهل . وها هى ذى الحجّة قائمةٌ على كلّ من هجر علماً واتّبع هوًى ، ويعتبر ذلك قوّةً للتّعريض بأهل الكتاب الّذين أصرّوا على الاستمساك بأهوائهم وهجر العلماء . ويكون قيام الحجّة أكبر حينما نتأمّل فى الآيتين الكريمتين جيّداً هذا القول ﴿ الّذين أوتوا الكتاب ﴾ وحينما نفهم ما يصحّ فهمه من كون هذا التّعبير ﴿ الّذين أوتوا الكتاب ﴾ ينصرف إلى أحبار اليهود وعلماء النّصارى وخاصّةً كلٍّ من الفئتين قبل عامّتهم .

وكما قلنا إنّ فى هذه الجزئيّة الكريمة الأخيرة تحذيراً للمؤمنين جميعاً عن اتّباع أهواء أهل

الكتاب . إنّ الخطاب إذا صح أن يتّجه إلى المعصوم ﷺ فمن باب الأَوْلى والأحرى أن يتّجه إلى سائر أفراد الأمّة الإسلاميّة وليس فيهم شخصٌ واحدٌ معصوم .

الآيــة رقــم (١٤٦)

قال تعالى : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ .

﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه ﴾ : الّذين فى موضع رفعٍ بالابتداء والخبر يعرفونه[١] والضّمير المنصوب فى يعرفونه عائدٌ على النّبىّ ﷺ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . وروى عن ابن عبّاس واختاره الزّجّاج ورجّحه التّبريزىّ وبدأ به الزّمخشرىّ[٢] وقيل : الضّمير عائدٌ على الحقّ الّذى هو التّحوّل إلى الكعبة قاله ابن عبّاس وقتاده أيضاً وابن جريج والرّبيع[٣] وقيل عائدٌ على القرآن وقيل على العلم وقيل على كون البيت الحرام قبلة إبراهيم[٤] ونحن نميل إلى كون الضّمير عائداً إلى المصطفى ﷺ . ويؤكد كون الضّمير لرسول الله ﷺ ما روى أنّ عمر سأل عبد الله بن سلام رضى الله عنهما وقال : إن الله قد أنزل على نبيّه : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه .... ﴾ الآية . فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله : يا عمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ، ومعرفتى بمحمّد ﷺ أشدّ من معرفتى بابنى . فقال عمر : وكيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنّه رسول الله حقّا ، وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما يصنع النّساء . فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت .... فقبّل عمر رأسه »[٥] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥ والبحر المحيط ١/٤٣٥

(٢) البحر المحيط ١/٤٣٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥ والجلالين والكشّاف ١/٢٤٥

(٣) البحر المحيط ١/٤٣٥ وتفسير القرطبىّ ص ٥٤٥

(٤) البحر المحيط ١/٤٣٥ والكشّاف ١/٢٤٥ وانظر تفسير الطبرى ٢/١٦

(٥) البحر المحيط ١/٤٣٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥

ليكتمون الحقّ : نعته ﷺ[١] وقيل : استقبال الكعبة[٢] أو أعمّ من ذلك فيندرج فيه كلّ حقّ[٣] .

بعد أن أخبرت الآية الكريمة السّابقة وأمرت وأنذرت ، وبعد أن بيّنت أنّ الّذين أوتوا الكتاب إنّما يتّبعون أهواءهم ويرفضون الاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام واتّباع المصطفى ﷺ ، تتحوّل الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إلى الحديث عن الّذين أوتوا الكتاب مكملةً بناء المعانى الّذى بدأته الآية السّابقة . إنّ الآية السّابقة إذا كانت قد بيّنت أنّ الّذين أوتوا الكتاب إنّما يتّبعون أهواءهم فى حقّ القبلة فإنّ هذه الآية الكريمة تبيّن أنّ الّذين آتاهم الله سبحانه وتعالى الكتاب ، بمعنى التّوراة والإنجيل ، من اليهود والنّصارى ، يعرفون المصطفى ﷺ كما يعرفون أبناءهم .

والّذى يلفت النّظر اختلاف التّعبير هنا : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ المتضمّن لنون العظمة ، عن التّعبير من ذى قبل : ﴿ الّذين أوتوا الكتاب ﴾ ونحن نتبينّ فى صيغة المبنى للمعلوم وفى ذكر نون العظمة ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب ﴾ تنبيهاً أكبر إلى منّ الله تعالى وفضله على أهل الكتاب ؛ فها هى ذى الصّيغة تجىء فى المبنىّ للمعلوم الّذى لحق به نون العظمة العائد إلى الذّات العليّة . ويفهم من زيادة المن والفضل زيادة الشّكر المرتقب من أهل الكتاب لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه . والعجيب أنّ زيادة النّعم قابلها زيادةٌ فى الجحود والكفران . وها هى ذى الآية الكريمة تقرّر فى صدرها أنّ أهل الكتاب الّذين آتاهم الله تعالى إيّاه والمتضمّن نعوت المصطفى ﷺ هى بناءً على تلك النعوت والأوصاف الّتى يجدونها مكتوبةً عندهم فى التّوراة والإنجيل يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم . وهل يخطىء شخصٌ واحدٌ فى الدّنيا معرفة ابنه مهما كان الأب بكىّ الإحساس وكان الابن غير ذى قربٍ من أبيه ؟ لا يخطىء شخصٌ واحدٌ معرفة ابنه لأنّ حبّ الأبناء

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٩٤ وتفسير الطّبرى ٢/١٧ وتفسير القرطبى ٥٤٥ والجلالين والبحر المحيط ١/٤٣٦

(٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥ وتفسير الطّبرى ٢/١٧ والبحر المحيط ١/٤٣٦ .

(٣) البحر المحيط ١/٤٣٦

فطرىّ. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ معرفة أهل الكتاب للمصطفى ﷺ وصدقه فيما أخبر بما فى ذلك تحويل القبلة كما يعرفون أبناءهم سواءً بسواء . بل إنّ من أهل الكتاب ، كابن سلام رضى الله تعالى عنه من صرّح بأنّه يعرف المصطفى ﷺ بأكثر من معرفته ابنه كما مرّ بنا . والعجيب فى أمر أهل الكتاب أنّهم بقدر ازدياد المعرفة من المصطفى ﷺ قرباً ولصوقاً كانوا منه ﷺ أكثر بعداً ونفوراً . وهذا ما صرّح به عجز الآية الكريمة أو شقّها الثّانى . قال تعالى : ﴿ وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ .

إنّ فريقاً من أهل الكتاب وطائفةً من أحبار اليهود وعلماء النّصارى ليكتمون الحقّ وهم يعلمون . وانظر إلى اللّام الّتى تفيد التّوكيد فى القول : ﴿ ليكتمون الحق ﴾ والمراد بالحقّ فى المقام الأوّل نعته ﷺ ﴿ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم ﴾[1] وحينما يكتمون هذا الحقّ الرّئيس يكتمون كلّ ما يتعلّق به من حقّ ، وفى مقدّمة ذلك أمر القبلة وقد جاء فى الآية الكريمة قبل السّابقة فى شأن تحويل القبلة إلى المسجد الحرام قوله تعالى : ﴿ وإنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربهم ﴾ وحينما نقارن بين هذا القول وبين القول هنا : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ ثمّة تجاوزاً من مرحلة الإنباء بعلم أهل الكتاب إلى مرحلة كَتْم فريقٍ منهم الحقّ وهم يعلمون . وحينما نعلم أنّ تحويل القبلة إلى المسجد الحرام إنّما كان بالقرآن الكريم الّذى نسخ السّنّة الّتى كان عن طريقها التّوجّه إلى بيت المقدس ، نستطيع أن نفهم أنّ هذا الفريق من أهل الكتاب قد امتدّ كِتمانُهُ الحقّ فشمل القرآن الكريم الّذى يعلم علم اليقين أنّه كلام الله تعالى . وحينما يجرؤ هذا الفريق على كتمان كلّ هذه الأنواع من الحقّ الرّئيسة فمن باب الأولى والأحرى أن يكتموا ما وراء ذلك من حقّ .

وحينما يجىء فى الآية الكريمة قبل السّابقة القول : ﴿ وإنّ الّذين أوتوا الكتاب

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧

ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم ﴾ وفى ذلك إشارةٌ إلى العلم . ويجيء فى الآية الكريمة السّابقة القول : ﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم ﴾ وفى ذلك إشادةٌ بالعلم . ويجيء فى هذه الآية الكريمة القول : ﴿ إنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ وفى ذلك نعىٌ على من كتم العلم ، فكيف إذا كان هذا الفريق من أهل الكتاب فى حكم من كتم العلم عن نفسه . وأىّ علمٍ هذا الّذى كتم ؟ إنّه الموصل إلى صراط الله تعالى المستقيم ، حينما يجيء فى الآيات الكريمة كلّ ذلك عن العلم نستطيع أن نفهم مدى إشادة القرآن الكريم بالعلم والعلماء وأن نفهم فى المقابل أنّ مسئوليّة العالم غير مسئوليّة غير العالم وأنّ حساب كتم العالم عِلْمَهُ عسيرٌ يوم القيامة وغير يسير .

ونستطيع أن نلمح فى شطر الآية الكريمة الأوّل استواء الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب فى معرفة المصطفى ﷺ . ونستطيع أن نلمح فى شطر الآية الكريمة الثّانى انقسام أهل الكتاب فريقين تجاه تلك المعرفة . فمنهم من جهر بها وأعلن إسلامه واتّباعه للمصطفى ﷺ ولم يخش فى الحقّ لومة لائم ، ومنهم من كتم الحقّ الّذى يعلمه علم اليقين . وإذا كان الفريق الثّانى موضع لومٍ وتثريبٍ شديدين فى الجزئيّة الكريمة وفى العديد من المواضع فى القرآن الكريم فإنّ الفريق الآخر الّذى أسلم لله تعالى وأذعن للحقّ واتّبع خاتم الأنبياء والمرسلين محلّ حفاوةٍ من القرآن الكريم واحتفاء فى العديد من المواضع ومن ذلك قوله تعالى[1] : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتَوْن أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ .

---

(١) سورة القصص ٥٢ ــ ٥٥

الآيــة رقــم (١٤٧)

قال تعالى : ﴿ الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ .

الحقّ من ربّك : قرأ الجمهور برفع الحقّ على أنّه مبتدأ والخبر هو من ربّك ، فيكون المجرور فى موضع رفع . أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الحقّ من ربّك ، والضّمير عائدٌ على الحق المكتوم[١] والخطاب للنّبىّ ﷺ والمراد أمّته[٢] .

فلا تكوننّ : أكّد النّهى بنون التّوكيد مبالغة فى النّهى . وكانت المشدّدة ، لأنّها أبلغ فى التّأكيد من المخفّفة . والمعنى . فلا تكوننّ من الّذين يشكّون فى الحقّ ، لأنّ ما جاء من الله تعالى لا يمكن أن يقع فيه شكٌّ ولا جدال ، إذ هو الحقّ المحض الّذى لا يمكن أن يلحق فيه ريبٌ ولا شكّ[٣] .

فلا تكوننّ من الممترين : أى من الشّاكّين[٤] والممترى : الشّاكّ[٥] يقال : امترى فلانٌ فى كذا إذا اعترضه اليقين مرّةً والشّكّ مرّة ، فدافع إحداهما بالأخرى . ومنه المِراء لأنّ كلّ واحدٍ منهما يشكّ فى قول صاحبه . والامتراء فى الشّىء الشّكّ فيه وكذا التّمارى[٦] والمرية هى الشّك[٧] وقد تضمّ وقرىء بهما[٨] ويقول الرّاغب[٩] : المِرْية : التّردّد فى الأمر وهو أخصّ من الشّكّ .... وأصله من مَرَيْت النّاقة إذا مَسَحْت ضَرْعها للحَلْب » ويقول ابن فارس[١٠] : « الميم والرّاء والحرف المعتلّ أصلان

---

(١) البحر المحيط ٤٣٦/١ والكشّاف ٢٤٥/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥ (٣) البحر المحيط ٤٣٧/١

(٤) تفسير القرطبى ص ٥٤٥ والكشّاف ٢٤٦/١

(٥) معانى القرآن للفرّاء ٨٥/١

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٥ وانظر البحر المحيط ٤١٩/١

(٧) تفسير الطّبرىّ ١٧/٢ وتفسير القرطبىّ ص ٥٤٦

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٦

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٦٧

(١٠) معجم مقاييس اللّغة « مرى » ٣١٤/٥

صحيحان يدلّ أحدهما على مسخ شيءٍ واستدرار ، والآخر على صلابةٍ فى شيء . فالأول المَرْى : مَرْى الناقة ، وذلك إذا مُسِحَتْ لِلْحَلْب ، يقال : مَرَيْتُها أَمْريها مَرْيًا » .

هذه الآية الكريمة الّتى تخاطب المصطفى ﷺ وتنهاه عن أن يكون من الشّاكّين فى الحقّ الّذى جاءه من ربّه جلّ وعلا يجيء فيها لفظ الحقّ الّذى تصدّر به الآية الكريمة . وسبق أن تبيّنا فى قوله تعالى من آية كريمةٍ سابقة : ﴿ وإنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقّ من ربّهم ﴾ أنّ المراد بالحقّ هنا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام . كما تبيّنّا بشأن الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ أنّ المراد بالحقّ هنا نعته ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل . فإذا تدبّرنا القول فى الآية الكريمة : ﴿ الحق من ربك ﴾ استطعنا فى ضوء قوله تعالى من سورة يونس[1] : ﴿ فإن كنت فى شكٍّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الّذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين . ولا تكوننّ من الّذين كذّبوا بآيات الله فتكونَ من الخاسرين ﴾ وفى ضوء وجه الشّبه الكبير بين الآيتين الكريمتين بحيث إنّ آية سورة البقرة جزءٌ من أولى الآيتين الكريمتين من سورة يونس ، استطعنا أن نفهم أنّ المقصود بالحقّ فى المقام الأوّل القرآن الكريم الّذى نزل به الرّوح الأمين على قلب المصطفى ﷺ بلسانٍ عربّي مبين . ويندرج فى ذلك الحقّ نعت المصطفى ﷺ المقصود فى المقام الأوّل بقوله تعالى : ﴿ وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ كما يندرج تحته تحويل القبلة وهو المقصود بالحقّ فى قوله تعالى : ﴿ وإنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم ﴾ ووراء ذلك يندرج تحته كلّ حقّ جاء المصطفى ﷺ من ربّه جلّ وعلا .

« وإنّ اصطباغ لفظة الحقّ فى كلّ مرّةٍ من المرّات الثّلاث بلونٍ مغاير بأكثر من الألوان الأخرى ، فالحقّ مرّةً يتّجه أساساً إلى أمر القبلة ، وفى أخرى إلى نعته ﷺ ، وفى ثالثة إلى الكتاب العزيز ، ليعتبر مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم الّذى تتتابع فيه موجات المعانى جديدةً قديمةً كلّ مرّة »[2] .

---

(١) الآية ٩٤ ، ٩٥ (٢) التفسير البسيط للقرآن الكريم للمؤلّف ٢/٧٢

وإنّ ممّا يستوقفنا فى الآية الكريمة الإيجاز مع الإعجاز فى القول : ﴿ الحقّ من ربّك ﴾ وقد عرفنا معانى الحقّ كما عرفنا أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وحينما تكون المناسبة عابقةً بشذا الحبّ والرّضا والامتنان ، فكيف إذا لحق بلفظ الرّب اسم الضّمير المتّصل الّذى يخاطب به المصطفى ﷺ . إنّ المنتظر من العباد أن يقوموا بما يجب عليهم من شكر لله تعالى ربّهم المنعم عليهم المتفضّل ، فكيف بما ينتظر من شكر من المصطفى ﷺ لربّه جلّ وعلا الّذى شرح صدره ووضع عنه وزره ورفع ذكره ويسّر أمره وكان فضله عليه عظيماً ؟ إنّ الشّكر المنتظر منه ﷺ كبير حقًّا وهو الحريص على أن يكون العبد الشّكور دائماً بعبادته جلّ وعلا حقّ العبادة مع أنّه تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر .

إنّ هذه الجزئيّة الكريمة الّتى عرفنا شيئاً من معانيها ومراميها : ﴿ الحقّ من ربّك ﴾ تعتبر موطّئةً للجزئيّة الكريمة التّالية المتضمّنة هى الأخرى للكثير من المعانى والمرامى فى مجال نهيه ﷺ عن صفة الامتراء والشّكّ وذلك فى الصّيغة المؤكّدة فى القول : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ إنّ المصطفى ﷺ ينهاه ربّه جلّ وعلا فى صيغة التّوكيد فلا تكوننّ عن أن يكون واحداً من الممترين الشّاكين « والنّهى عن كونه منهم أبلغ من النّهى عن نفس الفعل ، فقولك : لا تكن ظالماً أبلغ من قولك : لا تظلم ، لأنّ لا تظلم نهىٌ عن الالتباس بالظّلم ، وقولك لا تكن ظالماً نهىٌ عن الكون بهذه الصّفة والنّهى عن الكون على صفةٍ أبلغ من النّهى عن تلك الصّفة »[1] وإذا كان الخطاب متّجهاً أساساً إلى المصطفى ﷺ فإنّه فى الحقيقة يتّجه إلى أفراد الأمّة الإسلاميّة . إنّ على كلّ فردٍ أن يكون مطمئنًّا كلّ الاطمئنان للحقّ الّذى جاءه ﷺ من ربّه وفى مقدّمة ذلك الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميد .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٣٦

الآيــة رقــم (١٤٨)

قال تعالى : ﴿ ولكلٍّ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا ، إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

ولكلٍّ وجهة : ولكلّ أهل ملّة فحذف أهل الملّة واكتفى بدلالة الكلام عليه[١] ولكلّ أمّة[٢] ولكلٍّ من الأمم[٣] ولكلٍّ من أهل الأديان المختلفة[٤] ولكلّ طائفةٍ من أهل الأديان[٥].

وجهة : مصدر مثل القعدة والمشية من التّوجّه[٦] والمواجهة . والوجهة والجهة والوجه بمعنًى واحد ، والمراد القبلة[٧] وتأويلها متوجّه يتوجّه إليها بوجهه فى صلاته [٨] أى إنّهم لا يتّبعون قبلتك وأنت لا تتّبع قبلتهم . ولكلٍّ وجهةٌ إمّا بحقٍّ وإمّا بهوى[٩] .

هو مولّيها : هو عائدٌ على لفظ كلّ لا على معناه لأنّه لو كان على المعنى لقال : هم مولّوها وجوههم[١٠] ومولٍّ هنا اسم فاعلٍ من فعلٍ يتعدّى إلى اثنين[١١] فالهاء والألف مفعول أوّل[١٢] والمفعول الثّانى محذوفٌ لفهم المعنى أى هو مولّيها وجهه أو نفسه . قاله ابن عبّاس وعطاء والرّبيع[١٣] . والمعنى : هو مولّيها وجهه فى صلاته[١٤] أى هو مستقبلها[١٥] .

فاستبقوا الخيرات : الاستباق افتعالٌ من السَّبق وهو الوصول إلى الشّىء أوّلاً . ويكون افتعل منه إمّا لموافقة المجرّد فيكون معناه ومعنى سبق واحداً . أو لموافقة تفاعل فيكون

---

(١) تفسير الطّبرى ١٧/٢
(٢) معانى القرآن للأخفش ١٥٢/١
(٣) الجلالين
(٤) الكشّاف ٢٤٦/١
(٥) البحر المحيط ٤٣٧/١
(٦) تفسير الطّبرىّ ١٨/٢
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٦
(٨) تفسير الطّبرىّ ١٨/٢
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٦
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٦
(١١) البحر المحيط ٤٣٨/١
(١٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٦
(١٣) البحر المحيط ٤٣٧/١
(١٤) الجلالين .
(١٥) معانى القرآن للفرّاء ٨٥/١

استبق وتسابق بمعنًى واحد[١] فاستبقوا الخيرات : هذا أمر بالبَدار إلى فعل الخير والعمل الصّالح[٢] والمعنى : فبادروا وسارعوا من الاستباق وهو المبادرة والإسراع[٣] إلى الخيرات فحذف الحرف . أى بادروا ما أمركم الله جلّ وعزّ من استقبال البيت الحرام ، وإن كان يتضمّن الحثّ على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطّاعات بالعموم[٤] والمعنى المراد : المبادرة بالصّلاة أوّل وقتها . والله تعالى أعلم[٥] .

أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً : فى أىّ مكان وبقعةٍ تهلكون فيه يأت بكم الله جميعًا يوم القيامة[٦] .

إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير : مثل هذه الجملة المصدّرة بأنّ تجيء كالعلّة لما قبلها فكان المعنى إتيان الله بكم جميعًا لقدرته على ذلك[٧] .

بعد أن بيّنت الآيات الكريمات السّابقات أنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّ تحويل القبلة هو الحقّ من الله تعالى وبعد أن قرّرت أنّ أهل الكتاب لن يتّبعوا كأمّةٍ قبلته ﷺ بل لن يتبع بعضهم قبلة بعض فهم مختلفون رغم اتّفاقهم على عدم اتّباع قبلته ﷺ وهم الّذين يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم لأنّهم يجدون نعته مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل ويعرفون أنّ ما جاء به هو الحقّ من الله تعالى ربّه وربّهم جلّ وعلا ، بعد أن بيّنت الآيات الكريمات ذلك وقرّرت أنّ كلّ أمّة لن تتّبع قبلة الأمة الأخرى تعمّق الآية الكريمة الّتى نحن بصددها هذه الحقيقة فتقرّر أنّ لكلّ أمّةٍ من الأمم ولكلّ أهل ملّةٍ من الملل وجهتها الّتى تتّجه إليها فى الصّلاة وقبلتها الّتى تستقبلها فعلى خير أمّة أخرجت للنّاس أن تستبق الخيرات وأن تبادر إلى الطاعات وأن تسبق غيرها فى عمل الصّالحات الطّيّبات . إنّ مثل هذا الاستباق هو الّذى ينتظر من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس اصطفاها ربّها جلّ وعلا بخير قبلةٍ أكرم بها إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء وأكرم بها الأنبياء بعده .

---

(١) البحر المحيط ٤١٩/١
(٢) البحر المحيط ٤٣٩/١
(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨/٢
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٧
(٥) تفسير القرطبىّ ٥٤٧
(٦) تفسير الطّبرىّ ١٨/٢
(٧) البحر المحيط ٤٣٩/١.

ومع أنّ هذا القول : ﴿ ولكلٍّ وجهةٌ هو مولّيها ﴾ يتّجه إلى الأمم الثّلاث فى مجال القبلة ، فإنّ مراعاة اسم الضّمير المنفصل « هو » لفظ « كلّ » من القول ﴿ ولكلٍّ وجهةٌ هو موليها ﴾ ــ لأنّه لو كان على المعنى لقال : هم مولّوها وجوههم ــ يصحّ أن تحملنا تلك المراعاة على الظّنّ بأنّ لفظة وجهة وهى على وزن قبلة يصحّ أن يراد بها ما يترتّب على القبلة الخاصّة من اعتقادٍ وسلوك ، وما يندرج تحت القبلة من اتجّاهات وطرق وفرق تشعّبت بها السّبل وتفرّقت بها الطّرق . إنّ العدول فى الآية الكريمة عن استعمال لفظ قبلة إلى لفظ وجهة مسعفٌ لنا على الظّنّ بأنّ المعنى : ولكلّ أمّةٍ من الأمم ولكلّ فريق وجهةٌ هو مولّيها وجهه فى الصّلاة وفى غير الصّلاة . وإنّ الآية الكريمة التّالية من سورة المائدة مسعفةٌ على فهم الوجهة بالمعنى الواسع الّذى تبيّنّا . قال تعالى[1] : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ . لكل جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ ومن الواضح التّشابه بين الآيتين الكريمتين .

أما وقد اختصّت كلّ أمّةٍ بقبلتها ، واختطّت كلّ جماعةٍ طريقها حتّى تعدّدت الطّرق وتفرّقت السّبل فالمنتظر أن تبتعد الجهات وتنأى النّهايات وهنا نتبيّن الآية الكريمة وقد أوضحت فى جزئيّتها التّالية قدرة الله تعالى على المجىء يوم القيامة بكلّ الجماعات ، مهما تفرّقت بها السّبل واختلفت الغايات ، وتباينت المسافات من أجل الحساب ، الثّواب والعقاب . وانظر إلى جملة يأت فى القول : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا » والمعروف أنّ جملة « أتى » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد ، وفى ذلك قوةٌ للقول : ﴿ أينما تكونوا ﴾ الّذى يقرّر اختلاف أمكنة المخاطبين قرباً وبعدا ، ففى هذا القول : ﴿ أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعًا ﴾ تنبيهٌ على قدرة الله تعالى ، ويجىء إثر التّنبيه على القدرة والتّلميح إليها تصريح فى الشّطر الثانى من الجزئيّة الثّانية فى الآية الكريمة الّذى ينزّل منزلة التّعليل لما سبق : ﴿ إنّ الله على كلّ شىءٍ قدير ﴾ .

---

(١) سورة المائدة ٤٨

إنّ على المسلمين الّذين اصطفاهم الله تعالى بقبلة إبراهيم أبى الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وأن يعضّوا عليها بالنّواجذ وأن يستبقوا الخيرات ويهتبلوا الطّاعات ويبادروا إلى الصّالحات فى كلّ شئونهم بعامّة ، وفى الصّلاة بخاصّة ، وأن يبذلوا جهد الطّاقة فى سبيل اتّساع دائرة أتباع هذه القبلة الإبراهيميّة المحمّديّة إلى المسجد الحرام والكعبة المشرّفة وذلك عن طريق نشر هذا الدّين الإسلامىّ الّذى بعث به محمّداً ﷺ ، والّذى أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا .

الآيــة رقــم (١٤٩)

قال تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنّه للحقّ من ربّك وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ .

ومن حيث خرجت : ومن أىّ موضعٍ خرجت إلى أىّ موضعٍ وجّهت[١] .

فولّ وجهك : حوّل يا محمّد وجهك[٢] .

شطر المسجد الحرام : إذا صلّيت[٣] .

وإنّه : وإن هذا المأمور به[٤] .

للحقّ من ربّك : الّذى لا شكّ فيه من عند ربّك[٥] الثّابت الّذى لا يعرض له نسخٌ ولا تبديل[٦] وهذا التّكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأنّ النّسخ من مظانّ الفتنة والشّبهة وتسويل الشّيطان والحاجة إلى التّفصلة بينه وبين البداء فكرّر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدّوا ، ولأنه نيط بكلّ واحدٍ ما لم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها[٧] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩
(٣) الكشّاف ١/٢٤٦
(٤) الكشاف ١/٢٤٦
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩
(٦) البحر المحيط ١/٤٣٩
(٧) الكشّاف ١/٢٤٦

أمر ربّ العزّة المصطفى ﷺ بأن يولّى وجهه شطر المسجد الحرام تحقيقاً لأمنيّته عليه الصّلاة والسّلام الّتى وافقت مشيئة الله تعالى وقد وطّئ لهذا الأمر الّذى يحمل البشارة بتهيئته ﷺ لتلقّى البشارة الكبرى والمنّة العظمى . قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك فى السّماء فلنولّينّك قبلةً ترضاها ﴾ ولمّا كان المصطفى ﷺ آنذاك بالمدينة المنوّرة فقد صحّ أن يقترن أمره ﷺ هنا بحال إقامته ، وكانت الحاجة قائمةً لبيان الموقف حال سفره ﷺ ومغادرته المدينة المنّورة . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها قامت بهذا البيان . والمعنى : ومن حيث خرجت أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم ومن أى موضع سافرت وإلى أىّ موضعٍ انتهيت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحوّل وجهك تجاه البيت العتيق واجعل قبلتك الكعبة المشرّفة . وتبيّن الآية الكريمة فى صيغة التّوكيد القويّة ﴿ وإنّه للحقّ من ربّك ﴾ أنّ الاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام والكعبة المشرّفة هو الحقّ الثّابت من الله تعالى المؤكّد الّذى لن يطرأ عليه أىّ نسخٍ أو تبديل . فالتحوّل إلى المسجد الحرام فى الصّلاة هو التّحوّل إلى القبلة الأبديّة السّرمديّة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وانظر إلى لفظ الرّب الّذى لحق به ضمير المفرد المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ : ﴿ وإنّه للحقّ من ربّك ﴾ وهو يذكّرنا بالقول عن أهل الكتاب وموقفهم من تحويل القبلة : ﴿ وإنّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم ﴾ إنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وحينما يراد التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ووجوب قيامهم بالشّكر له جلّ وعلا عليها . وإنّ للمصطفى ﷺ الحظّ الموفور من كلّ ذلك .

وإنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿ وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ والّذى يتّجه فيه الخطاب إلى الأمّة المحمّدية ليذكّرنا هو الآخر بالقول من ذى قبل عن أهل الكتاب : ﴿ وما الله بغافلٍ عما يعملون ﴾ فالمطلوب من المسلمين لله ربّ العالمين أتباع محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الّذى أكرمه الله تعالى بأن هداه إلى خير قبلة ، أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وأن يحافظوا على هذه الصّلوات والصّلاة الوسطى ويقوموا لله قانتين ، وأن يعملوا ما فى وسعهم من أجل انسياح دائرة أتباع هذه القبلة الّتى هدى الله تعالى إليها

إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء ابتداءً وهدى إليها محمّد بن عبد الله ﷺ انتهاءً . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ليس بغافلٍ عمّا تعملون أيّها المسلمون ، وفى حال إحسانكم ستثابون ، وفى حال إساءتكم ستعاقبون . ﴿ ولا يظلم ربّك أحدا ﴾ .

الآيــة رقــم (١٥٠)

قال تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطرهُ لئلاّ يكونَ للنّاس عليكم حجّةٌ إلاّ الّذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتمّ نعمتى عليكم ولعلّكم تهتدون ﴾ .

لئلاّ يكون للنّاس عليكم حجّة : الحجّة بمعنى المحاجّة أى المخاصمة والمجادلة . وسمّاها الله حجّةً وحكم بفسادها حيث كانت من ظلمة . قاله ابن عطيّة[١] .

ولأتمّ نعمتى عليكم : يقول : لئلاّ يكون للنّاس عليكم حجّةٌ ولأتمّ نعمتى عليكم ، عطفٌ على الكلام الأوّل[٢] ويقول الطّبرىّ[٣] : « ولعلّكم عطفٌ على قوله : ولأتمّ نعمتى عليكم . ولأتمّ نعمتى عليكم ، عطفٌ على قوله : لئلاّ يكون » .

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بأن يولّوا وجوههم فى الصّلاة شطر المسجد الحرام وذلك فى القول : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك فى السّماء فلنولّينّك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ وقد فهم أنّ هذا الأمر حينما كان ﷺ فى المدينة المنوّرة مقيماً وغير مسافر . وأمره جلّ وعلا فى الشّأن ذاته وذلك فى القول : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنّه للحقّ من ربّك وما الله بغافلٍ عمّا تعملون ﴾ وقد فهم أنّ هذا الأمر حينما يكون ﷺ مسافراً وغير مقيم . وقد جاء فى الآية الكريمة التى نحن بصددها الأمر

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٢٠

(٣) معانى القرآن للأخفش ١/١٥٣ (٣) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٢

للمرّة الثّالثة فى الشأن ذاته وذلك فى القول : ﴿ ومن حيث خرجتَ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره .... ﴾ ومن البيّن أنّ خطابه ﷺ بالقول : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ هو ذات القول فى الآية الكريمة السّابقة الّتى قلنا إنّها تتعلق بكونه ﷺ مسافراً غير مقيم . وإذا كنّا فهمنا أنّ القول الأسبق : ﴿ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ متعلّق بكونه ﷺ مقيماً وعليه يكون الحديث عن كون المسلمين مقيمين فى المدينة وغير مسافرين . وإذا كنّا فهمنا أنّ القول السّابق فى الآية الكريمة السّابقة وهو ذات القول فى هذه الآية الكريمة : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ متعلّق بكونه ﷺ مسافراً فقياساً على ذلك يكون القول خطاباً للمؤمنين : ﴿ وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ متعلّقاً بسفر أولئك المؤمنين . ويبقى وراء ذلك معرفة الحكمة من تكرار القول مرّتين وذلك فى صدر هذه الآية الكريمة والآية الكريمة السّابقة الّتى قلنا إنّها تتعلّق بالسّفر : ﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ لقد فهم العلماء أنّ فى هذا التّكرار تعميقاً للأمر بتحويل القبلة وتأكيداً لتولّى الوجوه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام ومساعدةً للعباد على تقبّل أوّل نسخٍ فى القرآن الكريم وفى الإسلام وتهيئةً لهم على سرعة التخلّص من الهزّة الّتى يصحّ أن تكون قد مسّتهم من جرّاء تحويل القبلة وهو أمرٌ ليس بالهيّن ولا باليسير . يقول أبو حيّان مثلا[1] : « وحكمة هذا التّأكيد تثبيت هذا الحكم وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس لأنّ النّسخ هو من مظانّ الفتنة والشّبهة وتزيين الشّيطان للطّعن فى تبديل قبلةٍ بقبلة إذ كان ذلك صعباً عليهم » ويقول القرطبىّ[2] : « قيل هذا تأكيدٌ للأمر باستقبال الكعبة واهتمامٌ بها لأنّ موقع التّحويل كان معنتاً فى نفوسهم جدّاً ، فأكّد الأمر ليرى النّاس الاهتمام به فيخفّ عليهم وتسكن نفوسهم إليه » .

ويلاحظ أنّ التّعليل بعد ذلك فى القول : ﴿ لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة إلاّ الّذين ظلموا منهم ﴾ لا يترتّب على أمره ﷺ بالاتّجاه إلى الكعبة إنّما يترتّب على المؤمنين .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٤٠

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٤٩

ومع أنّه ﷺ يصحّ أن يدخل فى التّعليل وفيما جاء فى الآية بعد ذلك إلا أن الّذى يبدو ــ والله أعلم ــ أنّ الحديث يكاد يكون أكثر ارتباطاً بأمّته ﷺ وكأنّ ردّ الفعل لدى الظّالمين من النّاس لا يكاد يؤثّر فيه ﷺ فى قليلٍ أو كثير ، أليس هو ﷺ أخشى النّاس لله وقد غفر الله تعالى له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ؟ بلى .

ومعنى القول : ﴿ لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة ﴾ لئلا يكون لكافرى اليهود ومشركى العرب ومن لفّ لفّهم احتجاجٌ عليكم ومخاصمةٌ لكم لأنّهم لا يريدون أن يفهموا أنّ تحويل القبلة إنّما تمّ بأمرٍ من الله تعالى ووحيٍ إلى نبيّه ﷺ . إنّ كافرى اليهود وظالميهم مثلاً يقولون : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلاّ ميلاً إلى دين قومه وحبًّا لبلده ولو كان على الحقّ للزم قبلة الأنبياء[١] ويقولون[٢] : « اشتاق الرّجل إلى بيت أبيه ودين قومه » وإذا أراد كافرو أهل الكتاب وظالموهم الحجّة على رسول الله ﷺ بسبب صلاته ﷺ وأصحابه نحو بين المقدس يقولون[٣] : « ما درى محمّد وأصحابه أين قبلتهم حتّى هديناهم نحن » . وقولهم : « يخالفنا محمّد فى ديننا ويتبع قبلتنا ، فهى الحجّة الّتى كانوا يحتجّون بها على رسول الله ﷺ وأصحابه على وجه الخصومة منهم لهم والتّمويه منهم بها على الجهّال وأهل العناد من المشركين » .

وإنّ مشركى قريش وظالميهم يقولون[٤] : « رجع محمّدٌ إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا » وإذا أرادوا الحجّة بسبب الصّلاة إلى بيت المقدس قالوا[٥] : « يدّعى ملّة إبراهيم ويخالف قبلته » .

إنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة « النّاس » مشيرةً إلى كلّ النّاس الّذين يصحّ أن يكون لهم تجاه تحويل القبلة ردّ فعلٍ غير موافقٍ على نحوٍ من الأنحاء سواءٌ كانوا من أهل الكتاب أو من مشركى العرب أو منافقيهم ، ومن ذلك ما جرى على ألسنة السّفهاء : ﴿ ما ولّاهم عن قبلتهم الّتى كانوا عليها ﴾ وما جرى على ألسنتهم من الأقوال الّتى

---

(١) الكشّاف ٢٤٦/١ (٢) تفسير الطّبرىّ ١٩/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٩/٢

(٤) تفسير الطبرى ٢٠/٢ وانظر تفسير القرطبى ص ٥٠٥

(٥) الجلالين .

أشرنا إلى بعضها . ونستطيع أن نفهم أنّ غير الظّالمين من القوم سوف تسقط حجّتهم ويعترفون بذلك حينما يتبيّن لهم أنّ تحويل القبلة فى كلٍّ من المرّتين بوحي منه جلّ وعلا . وبما أنّ الظّالمين يظلون مستمسكين بترّهاتهم واعتراضاتهم بسبب تحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى المقام الأوّل فمعنى هذا أنّ تلك الاعتراضات ستتّجه هذه المرّة إلى الاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام والتّحوّل عن بيت المقدس بأكثر من الاعتراض على الاتجاه إلى بيت المقدس فى الصّلاة . ويفهم من السّياق أنّ حجّة الظّالمين داحضة .

وتنهى الآية الكريمة المؤمنين بقيادته ﷺ عن أن يخشوا النّاس الّذين يصحّ أن تعترضهم شبهة فكيف بالظّالمين الّذي يصرون على الاعتراض لذات الاعتراض ، وتأمرهم بأن يخشوا الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ والخشية أصلها طمأنينةٌ فى القلب تبعث على التّوقّى . والخوف : فزع القلب تخفّ له الأعضاء . ولخفّة الأعضاء به سمّى خوفاً[1]

وعطفاً على العلّة الأولى : ﴿ لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة ﴾ تجئ العلّة الثانية : ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ إنّ دحض حجّة الخصم حطٌّ عن المسلمين شيئاً من أوزارهم وتخلية . وإنّ إتمام النّعمة عليهم زيادة فضلٍ من الله وتحلية . وما أجمل التّحلية بعد التّخلية . ونستطيع أن نفهم إتمام النّعمة فى ضوء قوله تعالى من سورة المائدة[2] : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فبما أنّ إتمام النّعمة فى سورة المائدة يراد بها إتمام نعمة الإسلام والإيمان والإحسان فإنّا نستطيع أن نفهم أنّ تحويل القبلة إلى المسجد الحرام من قبيل إتمام نعمة الإسلام بتبيين تعاليمه وتحديد معالمه فى سبيل الحصول على التّمام الفعلىّ بدخول الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين .

ويعطف على العلّة الثّانية القول : ﴿ ولعلّكم تهتدون ﴾ إنّكم أيها المؤمنون الّذين

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥١ (٢) الآية ٣

هداكم الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه السّلام وعرّفكم فضله جلّ وعلا وعليكم بهذا النوع من الهداية والوقوف على بعض حكمها ، لعلّكم تهتدون فعلاً بأن تترجموا ما أعلمتكم إيّاه وأمرتكم به إلى عمل ، وفى مقدّمة ذلك إقام الصّلاة الّتي هي عماد الدّين والاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام .

الآيــة رقــم (١٥١)

قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

الآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآية الكريمة السّابقة الّتى نصّت على إتمام النّعمة بشأن القبلة وعلى الهداية . فالكاف من القول : كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم للتّشبيه[1] وهى فى موضع نصبٍ على النّعت لمصدر محذوف . المعنى : ولأتمّ نعمتى عليكم إتماماً مثلما أرسلنا . قاله الفرّاء[2] فالآية الكريمة تشبّه إتمام الله تعالى النّعمة على الأمة الإسلاميّة بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام بنعمة إرسال الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . وحينما تكون القبلة الأخيرة متمثّلةً فى المسجد الحرام والكعبة المشرّفة ، ويكون محمّد بن عبد الله ﷺ آخر الرّسل وخاتم النّبيّين ، نستطيع أن نتبيّن وجه الشّبه وهو تمام النّعمة وكمال الفضل بكون كلٍّ من القبلة والرّسالة تكمل وتختم بالمسجد الحرام وبمحمّد بن عبد الله ﷺ .

والآية الكريمة تنصّ فى حقّه ﷺ على نعمة الرّسالة ، والمعروف أنّ أكبر نعمةٍ يمتنّ الله تعالى بها على عبدٍ من عباده هى نعمة الرّسالة وأنّ درجة النّبوّة هى الطريق الوحيد المؤدّى إلى درجة الرّسالة الأعلى .

والآية الكريمة تمنّ على العرب الأمّيين نعمة إرسال المصطفى ﷺ فيهم ومنهم .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٤٣

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٢ والبحر المحيط ١/٤٤٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٢٢

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ ويتمشّى مع هذا المنّ نون العظمة العائدة على الذّات العليّة ﴿ كما أرسلنا ﴾ ونصادف فى حرفى الجرّ من القول : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ ترتيباً دقيقاً لهذه المنّة بشقّيها . فالرّسول ﷺ أرسله الله تعالى فى العرب الأمّيّين . وهذا معناه فضل الله تعالى على هؤلاء العرب الأمّيّين الّذين اصطفتهم العناية الإلـٰهيّة بأن يبعث فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى خصّه الله تعالى من بين سائر المرسلين بمجموعةٍ من الخصائص منها كونه ﷺ قد خصّ بإرسال الله تعالى له إلى النّاس كافّةً إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وحينما يبعث الله تعالى هذا الرّسول الخاتم فى العرب الأمّيّين ابتداءً فذلك معناه من جهةٍ فضل الله تعالى العظيم على هذه الأمّة باعتبارها مادّة الإسلام الأولى ، ومن جهةٍ أخرى عظم المسئوليّة الملقاة على عاتق هذه الأمّة باعتبارها نواة خير أمّةٍ أخرجت للنّاس .

ولمّا كان إرسال الله تعالى رسولاً فى قوم يصحّ أن يكون من خارج بلده وإن كان يتكلّم بلسانهم وأن يكون فى بلده ومن قومه ، ولمّا كانت النّعمة الثانية أكبر فى حقّ القوم المبعوث فيهم رسول الله تعالى ، فقد أتمّ الله النّعمة على العرب بأن بعث فيهم رسولاً منهم ، فمحمّد بن عبد الله ﷺ بعثه الله تعالى فى العرب ومن أنفُس هؤلاء العرب . وإلى هذه النّعمة العظمى أشار مثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ هو الّذى بعث فى الأمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾ .

ولمّا كانت صفة إرسال الرّسول النّبىّ الأمّىّ المبعوث فى الأمّيين ثابتةً ونهائيّةً فقد كان الحديث عن نعمة الإرسال على هذا النحو فى صيغة الزّمن الماضى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ أمّا حينما كان الحديث عن صفاتٍ متجدّدة فقد جاءت صيغة الزّمن المضارع الدّالة على ذلك التّجدّد : ﴿ يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب

---

(١) سورة آل عمران ١٦٤

(٢) سورة الجمعة ٢

والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ إنّ تلاوة آى الذّكر الحكيم على الأمّيّين ابتداءً وتزكيتهم بمعنى تطهيرهم من أدران الشّرك وأوساخ النّفس وأوضار الجاهليّة وتعليمهم الكتاب والسّنّة وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وما أكثر الّذى لا يعلمون ، يعتبر كلّ ذلك من الصّفاتَ المتجدّدة . فآيات الذّكر الحكيم تنزل مفرّقةً تباعاً والمصطفى ﷺ يتلو تلك الآيات على الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وتطهير المصطفى ﷺ الأمّة المسلمة يتتابع ويستمرّ بما يتلو من آياتٍ كريمات وبما يقدّم ﷺ من أسوةٍ حسنة وبما يعلّم من وحيٍ ينزل عليه متمثّلٍ فى القرآن الكريم وفى سنّته المطهرّة ﷺ وبما يعلّم ممّا علّمه الله تعالى من قصص النّبيّين وأخبار الأوّلين ، إلى غير ذلك من وحى سماوىّ وعلمٍ لدنّىّ واجتهادٍ ذاتىّ .

وانظر إلى التّرتيب البديع المعجز لتلك الصّفات وإلى تدرّجها وإسلام السّابقة للاّحقة . إنّ معجزة المصطفى ﷺ هى القرآن الكريم الّذى شاءت العناية الإلٰهيّة أن ينزل آياتٍ متفرّقات وليس جملةً واحدة بقصد تثبيت فؤاده ﷺ وتربية الأمّة المسلمة تباعاً . وها هو ذا المصطفى ﷺ يبادر إلى تبليغ ما أُنْزِل إليه من ربّه جلّ وعلا بتلاوة آى الذّكر الحكيم ابتداءً فى الصّلاة وفى غير الصلاة . ومن الطّبيعىّ أن يكون هدف المصطفى ﷺ الأوّل أن يتحوّل النّاس مسلمين لله ربّ العالمين وأن يتطهّروا من كلّ أرجاس الجاهليّة . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ نجح فى القضاء على الوثنيّة نجاحاً لم يقدّر لأىٍّ من رسل الله تعالى السّابقين . أما وقد تحوّل النّاس مسلمين لله رب العالمين وكان الوحى ينزل عليه ﷺ تباعاً فى هيئة آى الذّكر الحكيم والسّنة المطهّرة المبيّنة للقرآن الكريم ، فمن الطّبيعىّ أن يعلّم الرّسول ﷺ أمّته الكتاب بمعنى القرآن الكريم والحكمة بمعنى السّنّة النّبويّة المطهّرة وقد قال تعالى[1] : ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾ وباعتبار القرآن الكريم هو الأصل كانت الإشارة إليه متقدّمةً على الإشارة إلى السّنّة ، كما أنّ جملة يعلّمكم جاءت جامعةً بين القرآن والسّنّة معاً وذلك فى القول : ﴿ ويعلّمكم الكتاب والحكمة ﴾ .

---

(١) سورة النّحل ٤٤

ويبقى وراء ذلك ما يعلّمه المصطفى ﷺ أمّته ممّا علّمه الله تعالى إيّاه وما أكثره ، وإلى ذلك أشارت أخيرا الآية الكريمة وذلك فى القول الّذى صُدِّر هو الآخر بجملة يعلّمكم : ﴿ ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

ونستطيع من تأمّل الآية الكريمة أن نتبيّن حظّ العلم الموفور من الذّكر والعناية البعيدة المدى به ، والمعروف أنّ الإسلام دين العلم ، والمعروف أنّ أىّ دينٍ آخر لم يُعْن بالعلم عناية الإسلام به . وكان توفيق المسلمين بفضل الله تعالى فى مجال العلم كبيراً بحيث إنّ العرب الأمّيّين الّذين بعث الله تعالى فيهم النّبىّ الأمّىّ والّذين كانوا بسبب جاهليّتهم الجهلاء وفتنتهم العمياء فى ضلالٍ مبين قد تحوّلوا ببركة الإسلام الّتى شملتهم وببركة الرّسول الكريم والقرآن العظيم إلى أمّةٍ آتاها الله تعالى العلم . إنّ الفئة من العرب الّتى يصفها القرآن الكريم فى أكثر من موضع بأنّها قبل الإسلام فى ضلالٍ مبين ينعتها القرآن الكريم بأنّها الّتى آتاها الله سبحانه وتعالى العلم فضلاً منه جلّ وعلا ومنّة وذلك فى مثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾ .

إنّ هذا التّحوّل السّريع المذهل إلى الحسن بحيث إنّ العرب الأمّيّين قد تحوّلوا من النّقيض السّيّىء إلى النقيض الحسن فى تلك الفترة الزّمنيّة القصيرة الّتى لا نكاد نحسّ بها تجعلنا نقول بكل اطمئنان : إنّ الإسلام دين العلم قد أحدث فى أقصر فترة أعظم تحوّلٍ إلى الحسن عرفته البشريّة فى تاريخها الطّويل . إنّ كلّ ذلك الفضل من الله تعالى إنّما نال المسلمين ببركة إرسال خاتم النّبيّين وإنزال أشرف الكتب السّماويّة . إنّ على المسلمين أن يقدروا هذه النّعم حقّ قدرها وأن يشكروا لله تعالى عليها كى تدوم تلك النّعم وتزيد وذلك بالتمسّك بتعاليم الإسلام والعمل على نشره فى الخافقين ، كلٌّ وفق قدرته فلا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، وإلى ذلك دعت الآية الكريمة التّالية .

---

(١) سورة محمّد ١٦ .

الآيــة رقــم (١٥٢)

قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .

فاذكرونى أذكركم : الذّكر التّنبّه بالقلب للمذكور والتّيقّظ له . وسمّى الذّكر باللّسان ذكراً لأنّه دلالةٌ على الذّكر القلبىّ ، غير أنّه لمّا كثر إطلاق الذّكر على القول اللّسانىّ صار هو السّابق للفهم[١] أى اذكرونى بالطّاعة أذكركم بالثّواب والمغفرة ، قاله ابن جبير . أو بالدّعاء والتّسبيح ونحوه قاله الرّبيع والسّدّىّ[٢] وسمّى الثّواب المترتّب على ذلك ذكراً فقال : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ على سبيل المقابلة لمّا كان نتيجة الذّكر وناشئاً عنه سمّاه ذكراً[٣] قيل : معناه أجازيكم[٤]

واشكروا لى ولا تكفرون : الشّكر تصوّر النّعمة وإظهارها . ويضادّه الكفر وهو نِسيان النّعمة وسَتْرُها . ودابّةٌ شكور مظهرةٌ بِسمتها إسداء صاحبها إليها . والشّكر ثلاثة أضرب ، شكر القلب ، وهو تصوّر النّعمة ، وشكر اللّسان ، وهو الثّناء على المُنْعِم ، وشكر سائر الجوارح ، وهو مكافأة النّعمة بقدر استحقاقه . اعملوا آل داود شكرا . فقد قيل : شكراً انتصب على التّمييز ومعناه : اعملوا ما تعملونه شكراً لله . ولم يقل : اشكروا لينبّه على التزام الأنواع الثّلاثة من الشّكر بالقلب واللّسان وسائر الجوارح[٥] والعرب تقول : نصحت لك وشكرت لك ولا تكاد تقول : نصحتك . وربّما قالت : شكرتك ونصحتك[٦] .

ولا تكفرون : الكفر : تغطية الشّىء[٧] وهو هنا بمعنى ستر النّعمة[٨] ولا تكفرون

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٢

(٢) البحر المحيط ١/٤٤٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٥٢ وتفسير الطّبرىّ ٢/٢٣ وتفسير ابن كثير ١/١٩٦

(٣) البحر المحيط ١/٤٤٧

(٤) الجلالين .

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٢٦٥

(٦) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٣ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١/٩٢

(٧) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٣

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٤

نهى ، ولذلك حذفت منه نون الجماعة وهذه نون المتكلّم . وحذفت الياء لأنها رأس آية . وإثباتها أحسن فى غير القرآن . أى لا تكفروا نعمتى وأيادى[١] .

نعم الله تعالى على هذه الأمة لا تُحْصى ، وقد نص السّياق من بينها على نعمتين كبريين هما القبلة الآخرة والنّبىّ الخاتم . وبشأن الرّسول الخاتم نصّت الآية الكريمة السّابقة بالذّات على عددٍ من نعوته عليه الصّلاة والسّلام ، وهذه الآية الكريمة تطلب من الأمّة الإسلاميّة أن تذكر الله تعالى وتشكر له ولا تكفره ، وكأن المعنى كما يقول الأخفش[٢] : كما فعلت هذا فاذكرونى . وقد عرفنا أنّ الذّكر مرتبطٌ بالقلب أساساً بمعنى تنبّه القلب وتيقّظه وعدم الغفلة . وتتجلّى آثار تلك الأحوال للقلب على اللّسان الذى يلهج بذكر الله تعالى تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً وثناءً ودعاءً فى الصّلاة وفى غير الصّلاة وفى أثناء القيام بكلّ أنواع الطّاعات . وحينما يذكر المؤمنون ربّهم جلّ وعلا فى تلك الكيفيّة يذكرهم ربّهم جلّ وعلا بثوابهم ومغفرته ذنوبهم ورحمتهم . وحينما يكون ذكر الله تعالى عباده المؤمنين ثمرة ذكر العباد ربّهم جلّ وعلا على النّحو الذى تبيّن يكون الذّكر بمعنى الجزاء .

وبما أنّ يقظة القلب وتنبّهه ، وبما أنّ ذكر الله تعالى باللّسان ، يصحّ أن يصدر كلّ ذلك من الإنسان فى كلّ الأحوال ، لذا فإنّ الشّارع لم يضع للذّكر وحده نهايةً وحدّاً ، وقد قال تعالى[٣] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة ، إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ روى ابن ماجة عن عبد الله بن بسر أنّ أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ : إنّ شرائع الإسلام قد كثرت علىّ فأنبئنى منها بشىءٍ أتشبّث به . قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عزّ وجلّ[٥] وفى الحديث الصّحيح

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٤
(٢) معانى القرآن للأخفش ١٥٣/١
(٣) سورة الأحزاب ٤١
(٤) سورة النّساء ١٠٣
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٣

يقول الله تعالى : (من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملإٍ ذكرته فى ملإٍ خيرٍ منه)[١] .

وعقب الأمر بذكر الله تعالى يأتى الأمر بالشّكر له جلّ وعلا . بمعنى إظهار نعمه جلّ وعلا وإعلانها والتّحدّث بها وعمل الأوامر واجتناب النّواهى امتثالاً لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين ترجمةً إلى عملٍ الشّعور بالامتنان لفضل الله تعالى بنيّة الاستبقاء على النّعم والاستزادة منها . وقد قال تعالى[٢] : ﴿ وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد ﴾ وقال الإمام أحمد : حدّثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة ــ رجلٌ من قيس ــ حدّثنا أبو رجاء العطاردىّ قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال : إنّ رسول الله ﷺ قال : « من أنعم الله عليه نعمةً فإنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على خلقه » . وقال روح مرّة : على عبده[٣] إنّ إظهار نعمة الله تعالى من مظاهر الشّكر له جل وعلا .

والملاحظ أنّ الأمر بالذّكر تلاه الجزاء : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ بينما جاء الأمر وحده بشأن الشّكر ﴿ واشكروا لى ﴾ وكأنّ المعنى : واشكروا لى أشكر لكم ، وإنّما كان الاستغناء اكتفاءً بجزاء الذّكر الدّالّ على الجزاء المحذوف .

وقد أكّد الأمر بالشّكر بمعنى إظهار النّعم وعمل الصّالحات استزادةً منها واستبقاءً لها بالنّهى عن الكفران ، « ولا تكفرون » والمعنى ولا تكفروا نعمى ولا تغطّوها وتجحدوها بعصيان أمرى بعمل المعاصى والتّقصير فى الطّاعات . إنّ ثواب الشّكر كبير ، ومعروفٌ أنّه بالقلب وباللّسان وبالجوارح ، أمّا القلب فيتصوّر النعمة دائماً ، وأمّا اللّسان فيلهج بالثّناء على المنعم المتفضّل ، وأمّا الجوارح فتترجم إلى عملٍ صالحٍ شكر القلب واللّسان وقياساً على ثواب الشّكر الكبير يكون عقاب الكفران أليماً شديداً كما بيّن القرآن الكريم . نسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية وأن يلهمنا الشّكر على النّعم وأن يعطينا ولا يحرمنا وأن يزيدنا ولا ينقصنا وأن يجعلنا من الذّاكرين الشّاكرين غير الكافرين إنه سميعٌ مجيب .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٩٦/١

(٢) سورة إبراهيم ٧

(٣) تفسير ابن كثير ١٩٦/١

الآيــة رقــم (١٥٣)

قال تعالى : ﴿ يـا أيّهـا الّذيـن آمنـوا استعينـوا بـالصّبر والصّلاة ، إنّ الله مـع الصّابرين ﴾ .

تحدّثت الآيات الكريمات السّابقات فى شأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام وبيّنت ما الّذى سيقوله السّفهاء من أهل الكتاب ومن غيرهم فى هذا الشّأن وحدّدت موقف أهل الكتاب على جهة الخصوص من تحويل القبلة ودعت المؤمنين إلى امتثال أوامر الله تعالى وخشيته والشّكر له جلّ وعلا على نعمه وفى مقدّمتها هديهم إلى آخر قبلة واصطفاؤهم بخاتم النّبيّين . وهكذا يتبيّن أنّ الحديث فى مجموعه يتعلّق بالقبلة أى الجهة الّتى يولّى المؤمن وجهه إليها فى الصّلاة . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تأمر الّذين آمنوا بأن يستعينوا بالصّبر والصّلاة ، الصّبر على الآخرة ومن ذلك الصّبر على مايسمعه المؤمنون فى شأن القبلة من أهل الكتاب ومن الّذين أشركوا ومن لفّ لفّهم من أذىً كثير ، ومعروفٌ أنّ الصّلاة ذاتها تعتمد على الصّبر .

والآية الكريمة تخاطب الّذين آمنوا وذلك على غرار الخطاب السّابق لهم فى هذه السورة فى قوله تعالى[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنـا واسمعـوا ، وللكافرين عذابٌ أليم ﴾ إنّ ربّ العزّة يخاطب الّذين آمنوا ، وفى مقدّمتهم أصحاب المصطفى ﷺ فى الطّريقة المتضمّنة ثبوت هذه الصّفة فيهم فكأنّنا بصدد شهادةٍ من البرّ الرّحيم بإيمان المخاطبين فيالها من نعمةٍ كبرى ومنّةٍ عظمى .

والآية الكريمة تطلب من المؤمنين أن يستعينوا بركنى الإسلام ودعامتيـه الصّبر والصّلاة . وقدّم الصّبر فى الذّكر لأنّه عماد كلّ الطّاعات وفى مقدّمتها الصّلاة الّتى وصفهـا القـرآن الكـريم بأنّهـا لكـبيرةٌ إلاّ على الخاشعين وذلك فى قولـه تعالى[2] :﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين . الّذين يظنّون

---

(١) سورة البقرة ١٠٤ (٢) سورة البقرة ٤٥ ، ٤٦

أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون ﴾ .

والصّبر : قصر النّفس على المكاره والتّكاليف الشّاقة ، وهو أمرٌ قلبىّ . والصّلاة ثمرته . وهى من أشقّ التّكاليف لتكرّرها[١] .

وحينما نتبيّن أنّ الإيمان نصفان ، نصفٌ شكرٌ ونصفٌ صبر ، وقد أمرت الآية الكريمة السّابقة بالشّكر ، وهذه الآية الكريمة تأمر بالصبر ندرك نوعاً من الرّباط الوثيق الّذى يربط الآية الكريمة بسابقتها . والمعروف أنّ الصّبر ثلاثة أنواع ، صبرٌ على البلاء . ومن هذا النّوع ما يسمعه المؤمنون من أذىً بشأن القبلة من أهل الكتاب وسواهم ، وصبرٌ عن المعاصى ، وصبرٌ على الطّاعات وبخاصّةٍ الّتى خصّتها الآية الكريمة بالذّكر لأنّها عمود الدّين . وإنّما كان للصّلاة هذه المنزلة لأنّها أكثر أركان الإسلام بعد الشّهادتين تكراراً ، ومن ثمّ تتطلّب إقامتها صبراً أكيدا ، ولأنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد ، والسّجود من أركان الصّلاة فى الإسلام . يقول ابن كثير[٢] : « لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشّكر شرع فى بيان الصّبر والإرشاد والاستعانة بالصّبر والصّلاة ، فإنّ العبد إمّا أن يكون فى نعمةٍ فيشكر عليها أو فى نقمةٍ فيصبر عليها كما جاء فى الحديث : عجباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء فشكر كان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء فصبر كان خيراً له . وبيّن تعالى أنّ أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصّبر والصّلاة كما تقدّم فى قوله : واستعينوا بالصّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين . وفى الحديث أنّ رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ صلّى » .

ومن لطائف الأمور أنّ كلاً من الصّبر والصّلاة جاءا منصوبين على المدح أو الاختصاص ، الصّبر فى آية البرّ أو الإيمان وذلك فى قوله تعالى[٣] : ﴿ ليس البر أن تولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتابِ والنّبيّين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابن السّبيل والسّائلين وفى الرّقاب وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصّابرين

---

(١) البحر المحيط ٤٤٨/١

(٢) ١٩٦/١

(٣) سورة البقرة ١٧٧

فى البأساء والضّرّاء وحين البأس . أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

والصّلاة فى قوله تعالى من سورة النّساء[١] : ﴿ لكن الرّاسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصّلاة والمؤتون الزّكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ .

وبما أنّ الصّبر عماد كلّ الأمور وفى مقدّمتها الصّلاة ، فإنّ التّذييل فى الآية الكريمة قوّة للأمر بالاستعانة بالصّبر والصّلاة : ﴿ إنّ الله مع الصّابرين ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى مع الصّابرين ابتغاء مرضاته جلّ وعلا بالعون والتّسديد ، بالنّصر والتّأييد . قال تعالى[٢] : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

الآيــة رقــم (١٥٤)

قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون ﴾ .

تبيّن أنّ الصّبر عماد الطّاعات كلّها لذا تقدّم فى القرآن الكريم الأمر بالاستعانة به . ولمّا كان مقصود الآية الكريمة السّابقة تبيين حظّ الأعمال من الصّبر فى حال السّكون والخضوع والخشوع جمعت بين الصّبر والصّلاة . ولمّا كان المقصود تبيين حظّ النّوع الآخر المقابل من الأعمال من الصّبر ، أعنى الأعمال الّتى تقتضى الحركة وقيادة الجموع ، وكان حظّ القتال من الصّبر هو الموفور ، وكان المقصود التّنبيه إلى وجوب كون القتال جهاداً فى سبيل الله تعالى بقصد أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا لذا كان فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها حديثٌ عن هذا النّوع من العمل من زاوية أشهى ثماره النّاضجة ، زاوية الاستشهاد فى سبيل الله تعالى . إنّنا من ناحيةٍ بصدد تسلية أهل المستشهدين فى سبيل الله تعالى وأقربائهم وإخوانهم من المؤمنين فقد قيل إنّ سبب نزول

---

(١) الآية ١٦٢ (٢) سورة الزُّمَر ١٠

هذه الآية أنّه قيل لمن قتل فى سبيل الله مات فلانٌ وذهب عنه نعيم الدّنيا ولذّتها فأنزلت . نهوا عن قولهم عن الشّهداء أموات وأخبر تعالى أنّهم أحياء[١] ومن ناحيةٍ أخرى نحن بصدد إذكاء روح الفداء والتّضحية لدى المؤمنين الّذين سمعوا من أهل الكتاب ومن غيرهم أذىً كثيراً . والمعروف أنّ قتال المسلمين لليهود إنّما كان بعد غزوة بدرٍ الكبرى ونصر الله جنده وإعزاز دينه يوم الفرقان يوم التقى الجمعان وبعد أن وصل تحرّش القوم بالمؤمنين المدى الّذى وجب معه قتالهم .

والآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآيات الكريمات من سورة آل عمران . قال تعالى[٢] : ﴿ ولا تحسبنّ الّذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ .

والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن يقولوا لمن يقتل فى سبيل الله تعالى وجاهدوا بقصد أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا هم أموات[٣] بل هم أحياءٌ ولكنّا لا نشعر بكيفيّة حياتهم . وقد تبيّن أنّ آية سورة آل عمران تضيف إلى حياة الشّهداء رزق الله تعالى لهم . يقول أبو حيّان[٤] : « والجمهور على أنّهم فى الجنّة ويؤيّده قوله ﷺ لأمّ حارثة : إنّهم فى الفردوس . ومذهب أهل السّنّة أنّ الأرواح لا تفنى وأنّها باقيةٌ بعد خروجها من البدن . فأرواح أهل السّعادة منعّمةٌ إلى يوم الدّين . وأرواح أهل الشّقاوة معذّبةٌ إلى يوم الدّين . والفرق بين الشّهيد وغيره من المؤمنين إنّما هو الرّزق فضّلهم الله بذلك . وقد قال تعالى فى حقّ الكفّار : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشيًّا ﴾ وقد بيّن الطّبرىّ حال المؤمنين بعد وفاتهم وحال الكافرين وما خصّ الله تعالى به الشّهداء . يقول[٥] : « وقد

---

(١) البحر المحيط ١/٤٤٨ (٢) سورة آل عمران ١٦٩ — ١٧١

(٣) انظر هنا تفسير القرطبىّ ص ٥٥٤ والبحر المحيط ١/٤٤٨ ومعانى القرآن للأخفش ١/١٥٣ ومعانى القرآن للفرّاء ١/٩٣ وتفسير الطّبرىّ ٢/٢٥

(٤) البحر المحيط ١/٤٤٩ (٥) تفسير الطّبرىّ ٢/٢٤

علمت تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّه وصف حال المؤمنين والكافرين بعد وفاتهم فأخبر عن المؤمنين أنّهم يفتح لهم من قبورهم أبوابٌ إلى الجنّة يشمّون منها روحها ويستعجلون الله قيام السّاعة ليصيروا إلى مساكنهم منها ويجمع بينهم وبين أهاليهم وأولادهم فيها ، وعن الكافرين أنّهم يفتح لهم من قبورهم أبوابٌ إلى النّار ينظرون إليها ويصيبهم من نتنها ومكروهها ويسلّط عليهم فيها إلى قيام السّاعة من يقمعهم فيها ويسألون الله فيها تأخير قيام السّاعة حذاراً من المصير إلى ما أعدّ الله لهم فيها ، مع أشباه ذلك من الأخبار » أمّا عمّا خصّ الله تعالى به الشّهداء والفضيلة الّتى فضّلهم بها فإنّ الطّبرىّ يقول[1] : « إنّهم مرزوقون من مآكل الجنّة ومطاعمها فى برزخهم قبل بعثهم ومنعّمون بالّذى ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الّذى لم يطعمها الله أحداً غيرهم فى برزخه قبل بعثه فذلك هو الفضيلة الّتى فضّلهم بها وخصّهم بها من غيرهم » وجاء فى صحيح مسلم : إنّ أرواح الشّهداء فى حواصل طيور خضرٍ تسرح فى الجنّة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلّقةٍ تحت العرش فاطّلع عليهم ربّك إطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا . يا ربّنا وأىّ شىءٍ نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثمّ عاد عليهم بمثل هذا . فلمّا رأوا أنّهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا : نريد أن تردّنا إلى الدّار الدّنيا فنقاتل فى سبيلك حتّى نقتل فيك مرّة أخرى ، لما يرون من ثواب الشّهادة ، فيقول الرّبّ جلّ جلاله : إنّى كتبت أنّهم إليها لا يرجعون[2] .

وفى الحديث الّذى رواه الإمام أحمد عن الإمام الشّافعىّ عن الإمام مالك عن الزّهرىّ عن عبد الرّحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول لله ﷺ : نسمة المؤمن طائرٌ تعلّق فى شجر الجنّة حتّى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه . ففيه دلالةٌ لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشّهداء قد خصّصوا بالذّكر فى القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً[3] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٩٧

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٩٧

الآيــة رقــم (١٥٥)

قال تعالى : ﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات . وبشّر الصّابرين ﴾ .

ولنبلونّكم : ولنختبرنّكم ولنمتحننّكم[١] يقال : بَلِيَ الثّوب بِلًى وبلاءً أى خلق ومنه قيل لمن سافر : بلاه سفر ، أى أبلاه السّفر . وبلوته : اختبرته كأنّى أخلَقْتُه من كثرة اختبارى له . وقرئ : هنالك نبلو كلّ نفسٍ ما أسلفت ، أى نعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك قيل : أبليت فلاناً إذا اختبرته . وسمّى الغمّ بلاءً من حيث إنّه يُبْلى الجسم . قال تعالى : ﴿ وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ . ﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف ﴾ الآية . وقال عزّ وجلّ . ﴿ إنّ هذا لهو البلاء المبين ﴾ . وسمّى التّكليف بلاءً من أوجه : أحدها أنّ التّكاليف كلّها مشاقٌّ على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاءً . والثانى أنّها اختبارات ولهذا قال الله عزّ وجلّ : ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين . والثّالث أنّ اختبار الله تعالى للعباد تارةً بالمسارّ ليشكروا وتارةً بالمضارّ ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءً ، فالمحنة مقتضيةٌ للصّبر ، والمنحة مقتضيةٌ للشّكر . والقيام بحقوق الصّبر أيسر من القيام بحقوق الشّكر ، فصارت المنحة أعظم البلاءين . وبهذا النظر قال عمر : بُلينا بالضّرّاء فصبرنا وبُلينا بالسّرّاء فلم نصبر [٢] وأتى بالجملة الخبريّة مقسماً عليها تأكيداً لوقوع الابتلاء . وإسناد الفعل إليه صريحٌ فى إضافة أسباب البلايا إليه وأنّ هذه المحن من الله تعالى . ووعده بها المؤمنين يدلّ على أنّها ليست عقوبات ، بل إذا قارنها الصّبر أفادت درجة عاليةً فى الدّين[٣] .

بشيءٍ : لفظ مفرد ومعناه الجمع . أى بشيءٍ من هذا وشيءٍ من هذا ، فاكتفى بالأوّل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٩٧/١ وتفسير القرطبىّ ص ٥٥٤ وتفسير الطّبرىّ ٢٥/٢

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٦١ (٣) البحر المحيط ٤٥٠/١

إيجازاً[١] وأفرده ليدلّ على التّقليل إذ لو جمعه فقال : بأشياء لاحتمل أن يكون ضروباً من كلّ واحدٍ ممّا بعده[٢] .

من الخوف : أى خوف العدوّ والفزع فى القتال ، قاله ابن عبّاس[٣] .

والجوع : يعنى المجاعة بالجدب والقحط فى قول ابن عبّاس[٤] .

ونقصٍ من الأموال : بسبب الاشتغال بقتال الكفّار . وقيل : بالجوائح المتلفة[٥] .

والأنفس : قال ابن عبّاس : بالقتل والموت فى الجهاد . وقال الشّافعىّ : يعنى فى الأمراض[٦] .

والثّمرات : قال ابن عبّاس : المراد قلّة النّبات وانقطاع البركات[٧] يعنى الجوائح فى الثّمرات وقلّة النّبات وانقطاع البركات[٨].

وبشّر الصّابرين : الصّبر أصله الحبس[٩] والإمساك فى ضيق . يقال صَبَرْتُ الدّابّة حبستها بلا علف . والصّبر حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشّرع أو عمّا يقتضيان حبسها عنه . فالصّبر لفظٌ عامٌ وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه[١٠] .

تبيّن الآية الكريمة المبتدئة بالجملة الخبريّة المقسم عليها بقصد التّأكيد أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يبتلى المؤمنين ويمتحنهم بصنوف البلاء المتمثّلة فى شيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات . والآية الكريمة ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالآيتين الكريمتين السّابقتين بل بالآيات الكريمات السّابقات . فابتداء صنوف البلاء بالخوف يرتبط فى المقام الأوّل بالحروب . وفى الآية الكريمة السّابقة ثناءٌ عاطرٌ من الله تعالى على الشّهداء السّعداء الّذين أكرمهم الله تعالى بالشّهادة جهاداً فى سبيله جلّ وعلا . وقد تبيّنّا

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٢٥

(٢) البحر المحيط ١/٤٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥ والبحر المحيط ١/٤٥٠ وتفسير الطّبرىّ ٢/٢٥

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥ والبحر المحيط ١/٤٥٠ وتفسير الطّبرىّ ٢/٢٥

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥

(٨) البحر المحيط ١/٤٥٠

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥

(١٠) مفردات الراغب الأصفهانى ص ٢٧٣

حاجة الجهاد الكبيرة إلى الصّبر الّذى أمرت به الآية الكريمة السّابقة . وإنّ صنوف البلاء فى الآية الكريمة بحاجةٍ إلى الصّبر ، وهو نصف الإيمان فقد روى عنه عليه السّلام : الإيمان نصفان ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر[1] وقد دعت الآية الكريمة قبل ذلك إلى ذكر الله تعالى وإلى الشُّكر .

ومن خطاب الآية الكريمة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ والوعد بالمحن فى صيغة التّوكيد نستطيع أن نفهم أنّ هذه البلايا ليست عقوباتٍ دائماً ، بل إذا قارنها الصّبر أفادت درجةً عاليةً فى الدّين كما يقول أبو حيّان . وإذا كان المؤمنون بقيادته ﷺ محلّ ابتلاء الله تعالى ، ففى ذلك أسوةٌ حسنةٌ للمؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وفى ذلك توطينٌ للنّفوس على تلك البلايا . ووراء ذلك نحن نتبيّن من مجيء لفظة شيء فى القول : ﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف ... ﴾ والمعنى ولنبلونّكم بشيءٍ قليلٍ من كلّ هذه الأنواع من البلايا ، نحن نتبيّن مظهراً من مظاهر رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيء والتى سبقت غضبه وعذابه جلّ وعلا . كما نتبيّن فى ترتيب أنواع البلايا مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم بحيث إنّ كلّ نوعٍ يسلم للّذى يليه ويفضى إليه .

وتنصّ الآية الكريمة على الخوف ، وما أكثر أسباب الخوف ، ويأتى الخوف المرتبط بالحروب على رأس القائمة . وحينما تكون الآية الكريمة السّابقة قد تحدّثت فى صورةٍ من الصّور عن هذه الحروب ندرك الحكمة من تقديم الآية الكريمة فى الذّكر الخوف . ويرتبط بالخوف فى العادة الجوع . فلو أنّا تمثّلنا حرباً دائرةً رحاها بين طرفين ، ففى ذلك صرفٌ لكلٍّ من الطّرفين إلى الحرب بالكلّيّة وذلك على حساب العناية بما يؤدّى إلى سدّ الرّمق .

وكى يتبيّن التّلازم بين الخوف والجوع نتحوّل إلى مواضع أخرى فى القرآن الكريم فى معرض المنّ على سكّان الحرم بأكبر نعمتين يمتنّ الله تعالى بهما على فريقٍ من عباده وهما نعمة الإطعام من الجوع ونعمة الأمن من الخوف . جاء فى سورة قريش قوله تعالى :

---

(١) البحر المحيط ١/٤٥٠

﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشّتاء والصّيف . فليعبدوا ربّ هذا البيت . الّذى أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ﴾ وفى مقابل الكفر بأنعم الله تعالى أذاق الله تعالى كافرى النعمة لباس الجوع والخوف . جاء فى سورة النّحل[1] : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ إنّ الجائع والخائف كلّ منهما يظهر ذلك عليه[2] ولذلك كان فى الآية الكريمة استعارة اللّباس . وكما صحّ أن يكون مصدر الخوف الحروب وسواها ، كذلك صحّ أن يكون مصدر الجوع الحروب وسواها من جدبٍ وقحط ، ويتأكّد الجوع بنقص الأموال بسبب الحروب وغيرها . إنّ وجود الأموال قد يخفّف من وطأة الجوع ، حينما يوجد الطّعام الّذى يشترى بالمال ، وإن كان المال أحياناً لا يستطيع أن يوجد طعاماً أو شراباً معدومين . فإذا أضيف إلى الجوع نقص المال كانت البليّة عظمى والطّامّة كبرى .

وقد جمعت الآية الكريمة بعد الخوف والجوع بين ثلاثةٍ من مظاهر المحن يطرأ عليها النّقص . وكان الابتداء بنقص الأموال الّذى تبيّنّا علاقته بالجوع . وبقى بعد ذلك نقص الأنفس والثّمرات : ﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات ﴾ ونستطيع أن نتبيّن فى هذا التّرتيب الإعجاز القرآنىّ والنّظم البديع ذاته ، ونستطيع أن نقول باختصار إن ثمّةَ تحوّلاً من البليّة الأكثر حدوثاً إلى الّتى تقلّ حدوثاً ووروداً . إنّ نقص الأموال فى الحروب وفى غيرها كثير الحدوث ، يليه النّقص فى النّفوس ، فقد جرت العادة أن تفتدى النّفوس فى الحروب وفى غير الحروب بكلّ غالٍ ورخيص . فإذا وصل النّقص إلى الثمرات الّتى يكاد ينحصر دورها فى سدّ الرّمق ودفع غائلة الجوع كانت البليّة أكبر من كلّ بليّة . وبفضل الله تعالى بليّة قلّة المياه وانقطاع البركات ليست كثيرة الحدوث ، فإذا حدثت طال مداها واشتدّ أذاها ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلىّ العظيم .

---

(١) الآية ١١٢

(٢) تفسير ابن كثير ١/١٩٧

وإنّ الوقوف على الحكمة من تقديم الخوف على الجوع فى الآية الكريمة وذلك بسبب ذكر الحرب فى الآية الكريمة السّابقة ضمناً يغرينا بمحاولة الوقوف على الحكمة من حدوث العكس فى سورة قريش وسورة النّحل . لقد تقدّم فى سورة قريش ذكر الإطعام من الجوع على الأمان من الخوف وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا ربّ هذا البيت . الّذى أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ﴾ لأنّ الجوّ يعبق بشذا الأمان والاطمئنان . والعادة جرت فى مثل هذه الحال أن يتقدّم الوعى بالإطعام من الجوع على الوعى بالأمن من الخوف ، خاصّةً وأنّ ربّ العزّة قد مكّن للقرشيّين حرماً آمناً ويتخطّف النّاس من حولهم . إنّ يقظتهم للحاجة إلى الطّعام هى المتقدّمة ، والمعروف أنّ القرشيّين من أمهر خلق الله تعالى فى التّجارة والضّرب فى الأرض . وحينما بيّنت آية سورة النحل سلب الله تعالى أهل القرية الّتى كفرت بأنعم الله نعمتى الطّعام والأمن تقدّم فيها ذكر الجوع باعتبار إحساس القرية الآمنة المطمئنة به أشدّ وانهماكها فيه أكثر ، ثمّ إنّ الإحساس بالجوع يرتبط به الشّعور بالخوف ويترتّب عليه . إنّ توفّر الأمن مهيّىءٌ بإذن الله تعالى لوجود الطّعام . وإنّ ذهاب الطّعام مهيّىءٌ لمجىء الخوف . لقد نبّهت الآية الكريمة إلى كل ذلك .

وتختم آية سورة البقرة بالقول : ﴿ وبشّر الصّابرين ﴾ والخطاب هنا أساساً للمصطفى ﷺ ويتّجه وراء ذلك إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المسلمة . والبشارة ترتبط بالأخبار الّتى تتأثر لها البشرة ويتعلّق ذلك بأحوال السّرور غالباً ممّا تبتهج له النّفس وتنفرج له أسارير الوجه . والمعنى وبشّر الصّابرين فى الضّرّاء ابتغاء مرضاة الله تعالى بالثّواب الجزيل يوم القيامة والخير العميم والنّعيم المقيم . « لكن لا يكون ذلك إلاّ بالصّبر عند الصّدمة الأولى ، كما روى البخارىّ عن أنس عن النّبىّ ﷺ قال : إنّما الصّبر عند الصّدمة الأولى . وأخرجه مسلم أتمّ منه . أى إنّما الصّبر الشّاقّ على النّفس الّذى يعظم الثّواب عليه إنّما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها ، فإنّه يدلّ على قوّة القلب وتثبّته فى مقام الصّبر . وأمّا إذا بردت حرارة المصيبة فكلّ أحدٍ يصبر إذ ذاك . ولذلك قيل : يجب على كلّ عاقلٍ أن يلتزم عند المصيبة ما لابدّ للأحمق منه بعد ثلاث »[1] « فأمّا إظهار

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٥

البلوى على غير وجه الشّكوى فلا ينافى الصّبر وقال الله تعالى فى قصّة أيّوب : إنّا وجدناه صابرا نعم العبد ، مع ما أخبر عنه أنّه قال : مسّنى الضّرّ »[١] .

الآيــة رقــم (١٥٦)

قال تعالى : ﴿ الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ .

الّذين : يجوز فى الّذين أن يكون منصوباً على النّعت للصّابرين وهو ظاهر الإعراب ، أو منصوباً على المدح فيكون مقطوعاً ، أو مرفوعاً على إضمار هم على وجهين ، إمّا على القطع وإمّا على الاستئناف كأنّه جوابٌ لسؤالٍ مقدّر أى : من الصّابرون[٢] .

مصيبة : المصيبة : كلّ ما يؤذى المؤمن ويصيبه . والمصيبة النّكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت ، وتستعمل فى الشّر[٣] وهى اسم فاعل من أصابت ، وصار لها اختصاصٌ بالشّىء المكروه ، وصارت كناية عن الدّاهية فجرت مجرى الأسماء ووليت العوامل[٤] .

وأصابتهم مصيبة من التّجنيس المغاير وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً ، ومنه ، أزفت الآزفة ، إذا وقعت الواقعة[٥]

بشّرت الآية الكريمة السّابقة الصّابرين بالأجر الكريم والخير العميم . وهذه الآية الكريمة تبيّن صفة الصّابرين الخليقين بذلك الفضل من الله تعالى . إنّهم الّذين إذا أصابتهم بإرادة الله تعالى وحده لا شريك له مصيبةٌ من المصائب الّتى أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة أو سواها من المصائب فرّوا إلى الله تعالى وجرى على لسانهم ما ألهمهم الله تعالى بقوله فى مثل هذه الحال : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ . قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى : لم تُعْط هذه الكلمات نبيّاً قبل نبيّنا ، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف[٦] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٦
(٢) البحر المحيط ١/٤٥١
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٦
(٤) البحر المحيط ١/٤٥١
(٥) البحـــــر المحيـــــط ١/٤٥١
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٧

وهذا القول : ﴿ إنا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ ذو شقّين : الأول : إنّا لله ، والمعنى أنّا لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ملكاً وعبيداً يفعل بنا ما يشاء لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه ولا يسأل عمّا يفعل .

والثانى : وإنّا إليه راجعون ، والمعنى أنّا جميعاً إليه تعالى راجعون يوم القيامة ، فثمّة بعثٌ ونشورٌ وحساب ، ثوابٌ أو عقاب . روى أنّ النّبىّ ﷺ قال : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنّة وسمّوه بيت الحمد . وروى مسلم عن أمّ سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عزّ وجلّ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . اللهمّ أجرنى فى مصيبتى وأَخْلِف لى خيراً منها إلاّ أخلف الله له خيراً منها . فهذا تنبيهٌ على قوله تعالى : وبشّر الصّابرين إمّا بالخلف كما أخلف الله لأمّ سلمة رسول الله ﷺ فإنّه تزوّجها لمّا مات أبو سلمة زوجها . وإمّا بالثّواب الجزيل كما فى الحديث المذكور ، وقد يكون بهما[1] .

واشتملت الآية على فرضٍ ونفل . فالفرض التّسليم لأمر الله والرِّضا بقدره والصّبر على أداء فرائضه . والنّفل إظهار القول إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وفى إظهاره فوائد ، منها غيظ الكفّار لعلمهم بجدّه فى طاعة الله[2] ويستوى فى ذلك جليل المصائب وهيّنها .

روى عكرمة أنّ مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلةٍ فقال : إنا لله وإنّا إليه راجعون . فقيل : أمصيبةٌ هى يا رسول الله ؟ قال : نعم . كلّ ما آذى المؤمن فهو مصيبة . قلت : هذا ثابت معناه فى الصّحيح[3] وخرّج مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما أنّهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن حتى الهمّ يَهُمُّه[4] إلاّ كفّر به من سيّئاته[5] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ص ٥٥٨ (٢) البحر المحيط ٤٥٢/١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٥٦ والكشّاف ٢٤٧/١

(٤) بضمّ الياء وفتح الهاء على ما لم يسمّ فاعله . وبفتح الياء وضمّ الهاء أى يغمّه ، وكلاهما صحيح .

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٥٦